رَبِيعُ قَلْبِي ﷿

«أَنْ تجعلَ القُرآنَ ربيعَ قَلبِي، ونُورَ صَدرِي، وجَلاءَ حُزنِي، وذَهابَ هَمِّي»

تأليف

توفيق بن خلف الرّفاعي

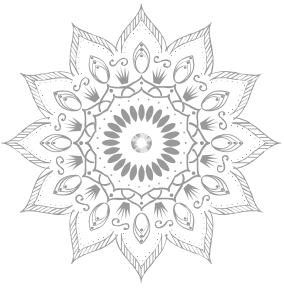

رَبيعُ قَلْبي

اسم الكتاب: ربيع قلبي.
المؤلـــــف: توفيق بن خلف بن عبد الله الرفاعي.

الطبعة الأولى

١٤٤٧هـ -٢٠٢٥م

الصف والتصميم والإخراج:

مؤسسة سلسبيل
للدعاية والإعلان والنشر والتوزيع

حولي- شارع المثنى- مجمع البدري
الدور الأرضي- محل ٢٩
هاتف: ٩٦٥٦٠٠٨٢٧٠٤ +

رَبِيعُ قَلْبِي

(أَنْ تَجْعَلَ القُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجَلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي)

تأليف

توفيق بن خلف الرّفاعي

مؤسسة سلسبيل
للدعاية والإعلان والنشر والتوزيع

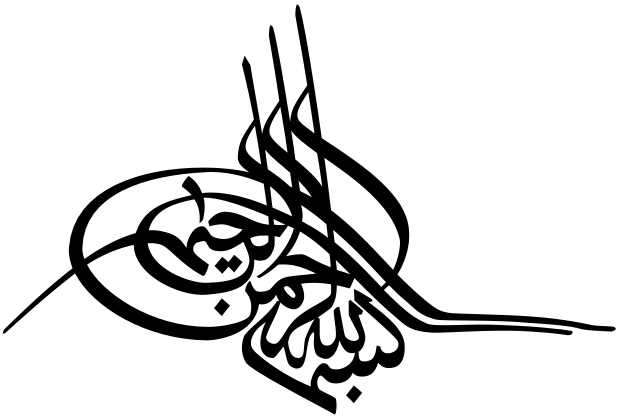

المطلع:

مطلع هذا الربيع في حفظ وصية رسول الله ﷺ هذه وتعلُّمها

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا أَصَابَ أَحَدًا قَطُّ هَمٌّ وَلَا حَزَنٌ، فَقَالَ: اللهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، ابْنُ عَبْدِكَ، ابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجِلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي، إِلَّا أَذْهَبَ اللهُ هَمَّهُ وَحُزْنَهُ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَحًا**»، قَالَ: فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلَا نَتَعَلَّمُهَا؟ فَقَالَ: «**بَلَى، يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهَا أَنْ يَتَعَلَّمَهَا**»(١).

وصية رسول الله ﷺ:

إن رجائي بالله أن يكون هذا البحث دافعًا لحفظ هذه الكلمات الجامعات، ودافعًا لتعلُّمها بما يشفي، ويكفي، ويفي، تحقيقًا لما حضَّ النبي ﷺ عليه في قوله: «**يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهَا أَنْ يَتَعَلَّمَهَا**»، فهو حين سمعها لم يتوقف الواجب عليه عند سماعها، بل ينتقل إلى تعلُّمها.. ففيها علم عظيم، ولولا ذاك ما قال ﷺ:

---

(١) رواه أحمد (٣٧١٢)، وابن حبان في صحيحه (٩٧٢)، والحاكم (١٨٧٧)، وقال الأرنؤوط في تحقيقه لصحيح ابن حبان: إسناده صحيح، رجاله رجال الصحيح، وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٩٩).

«**يَتَعَلَّمَهَا**»، فتعلُّمها يشمل حفظها، وتعلُّم ما فيها من علم.. فعلمها إيمان، وعلمها عمل، وعلمها دعوة إلى الله على بصيرة.. فمَن سمعها حفظها وأسمعها غيره، وتَعَلَّمها وعَلَّمها.

إنها وصية رسول الله ﷺ وكفاها؛ فقد أوصى النبي ﷺ بتبليغ هذا الدعاء خاصة، وأوصى بحفظه خاصة، فقد جاء في رواية أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: «قَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ الْـمَغْبُونَ لَمَنْ غُبَنَ هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ، قَالَ: «**أَجَلْ**». قَالَ: «**فَقُولُوهُنَّ، وَعَلِّمُوهُنَّ؛ فَإِنَّهُ مَنْ قَالَهُنَّ وَعَلَّمَهُنَّ الْتِمَاسَ مَا فِيهِنَّ أَذْهَبَ اللهُ كَرْبَهُ، وَأَطَالَ فَرَحَهُ**»[(١)]، وجاء في آخر حديث ابن مسعود رضي الله عنه: «إِلَّا أَذْهَبَ اللهُ هَمَّهُ وَحُزْنَهُ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَحًا»، قَالَ: فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلَا نَتَعَلَّمُهَا؟ فَقَالَ: «**بَلَى، يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهَا أَنْ يَتَعَلَّمَهَا**»[(٢)].

سائلًا الله ﷻ أن يجعل [بشائر الربيع] في هذا الكُتَيِّب حقيقة قريبة.. بل متحققة مثمرة خصيبة، وأن يعطينا جميعًا ما دعا به رسول الله ﷺ في هذه الحياة عطاءً كاملًا تامًّا.. عطاءً غير منقوص، وأن يجعل عطاءنا في الآخرة الفردوس الأعلى... عطاءً غير مجذوذ... اللهم آمين وصلَّى الله وسَلَّم على سيد المرسلين وآله وصحبه ومَن تبعهم إلى يوم الدين أجمعين.

---

(١) عمل اليوم والليلة لابن السني ص (٣٠٠) رقم (٣٣٩)، وقال ابن حجر في نتائج الأفكار (٤/ ٩٨): حديث ابن مسعود أثبت سندًا وأشهر رجالًا، وهو حديث حسن، وقد صححه بعض الأئمة، وصححه الألباني في الصحيحة (١٩٩) ص (٣٨٦).

(٢) سبق تخريجه في الصفحة السابقة.

لمَن هذا الدعاء؟

ولنتدبَّر الآن هذا الهتاف العظيم بالأدب العظيم الذي يليق به ﷺ حسبما نستطيع؛ «**اللهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، ابْنُ عَبْدِكَ، ابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجِلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي**».

سبحان الله: كم يعيش رسول الله ﷺ مع كل مهموم مغموم في هذه الأمة، التي يعلم أنها سوف تتسع وتتباعد أطرافها، وأنه مُوَدِّعها في أولها ﷺ...

كم يودُّ رسول الله ﷺ أن يعيش مع البعداء الغرباء عنه مكانًا وزمانًا في كلِّ ما أَلَمَّ بهم..

كم يودُّ أن يعين كلَّ واحدٍ منَّا على قضاء حاجته، أن يرفع عنه ضغط همه الذي أضعفه وأضناه.. كم يريد أن يكشف عنه غمَّه الذي يعذبه، أو دَيْنه الذي غلبه، وسلط عليه قهر الرجال.

يريد رسول الله ﷺ أن يكون معه في همِّ الطرد من بيته؛ فيزيل همَّه ويشفع له لئلا يطرد..

يريد رسول الله ﷺ أن يكون معه في هَمِّ النفي والغُربة عن دياره، أو الإخراج من مأمنه ومصدر رزقه..

يريد رسول الله ﷺ أن يكون مع مَن ضاق قُوتُه على عياله، مع مَن انتهى

مخزون غذائه فهو لا يجد لقمة واحدة لعياله في الوجبة القادمة، أو اليوم القادم، يريد أن يكون منقذًا لضجيع الجوع من مخالب الجوع... حتى يشبعه، لذا علَّمه هذه الاستعاذة: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُوعِ، فَإِنَّهُ بِئْسَ الضَّجِيعُ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْخِيَانَةِ، فَإِنَّهَا بِئْسَتِ الْبِطَانَةُ**»(١).

يريد رسول الله ﷺ أن يكون مع ذاك الذي يودِّع الحياة وحوله صغاره الذين لا يجدون شيئًا لأنه لم يترك لهم شيئًا.. فليس عنده من كَدِّه وكسبه أي رصيد يُذكر فيتولاهم من بعده ويطمئنه! فأي همٍّ مثل هذا الهم، ومَن مِنَ الخلق يكشف غمه هذا..؟!(٢)

يريد أن يكون ﷺ مع مَن ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، والبيوت بما اتسعت، حيث البيوت تحولت تَنُّورًا، وشرايين الصدور غدت حبالًا يعقد فيها الشيطان -نعوذ بالله منه- عُقَدَهُ، وينفث عليها نيرانًا، ويعيث بين الزوجين إفسادًا.. فغدا كل تاريخ الحياة الاجتماعية السعيدة بينهما، وكل لحظات الفرح والسرور، مثل لحظات العُرْس والولادة والحبور... تحوَّلت إلى كتل سوداء

---

(١) رواه أبو داود (١٥٤٧)، وابن ماجه (٣٣٥٤)، وابن حبان في صحيحه (٦٧٦٢)، وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني في نتائج الأفكار (٣/ ٨٨): هذا حديث حسن، وقال الأرنؤوط: حديث حسن، وحسنه الألباني.

(٢) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**مَا مِنْ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَأَنَا أَوْلَى بِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، اقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾** [الأحزاب:٦]، **فَأَيُّمَا مُؤْمِنٍ مَاتَ وَتَرَكَ مَالًا فَلْيَرِثْهُ عَصَبَتُهُ مَنْ كَانُوا، وَمَنْ تَرَكَ دَيْنًا أَوْ ضَيَاعًا** (وهمُ الأولادُ الصِّغارُ، والزَّوْجةُ، ومَن لا يَستطيعُ القيامَ بأمرِ نفسِه) **فَلْيَأْتِنِي، فَأَنَا مَوْلَاهُ**». رواه البخاري (٢٢٩٩)، ومسلم (١٦١٩).

مظلمة وحمم تنتظر الانفجار في روحها الواحدة لتعود أشتاتًا بعد إذ كانت من قبل مودة ورحمة، نعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

فانفجر هذا الدعاء العظيم ربيعًا ونورًا والذي يستوعب كل أحدٍ من هؤلاء وغير هؤلاء مما لا نحصيهم ولا نستطيع أن نحصيهم.. لكنه ﷺ يستطيع، وقد استطاع.. استطاع وقد سبر أغوار هذه الأمة بمجتمعاتها، وأُسَرِها، وأفرادها، وما علَّمه الله من تفاصيل أحوالها؛ سواءٌ ما كان منها من أعوامِ خيرٍ وسَعة، أو سنين كَسِنِي يوسف عليه السلام وأشد..

دعاء بصيغة الفرد!

وسبحان الله: فلقد جاء دعاء النبي ﷺ فيه بصيغة الفرد [قلبي.. صدري.. حزني.. همي]، وهكذا يحمله كل فردٍ كما قاله ﷺ، وربما تمنَّى البعض لو أن النبي ﷺ قاله بضمير الجمع، فيقولوا: [قلوبنا.. صدورنا.. أحزاننا.. همومنا]، فلماذا؟

لقد فات مَن قال بهذا فهم الحقيقة في الإفراد هنا.. فاته خيرٌ عظيم في هذا الدعاء خاصة.. فاته أن لكل واحدٍ همه، وغمه، وحزنه، ودَينه، وهذا عادة ما يكون خاصًّا به، فيعيش حالته من أعماقه، ويعيش كلمات رسول الله ﷺ فتستخرج صدقه وإخلاصه ومعاناته هو، كما ترده إلى الله تعالى ردًّا لطيفًا عظيمًا شاملًا، وهذه أعظم أسرار الإجابة، فليكن دعاؤه بينه وبين ربه، ثم ليقتدِ بما قاله رسول الله ﷺ كما قاله حرفيًّا ﷺ.

وفات هذا المتمنِّي أن رسول الله ﷺ أقام نفسه هو مقام كل مَن دعا بدعوته هذه.. فكأن هذا الفرد هو وصيته ﷺ الخاصة له، وهو حامل وصيته.. وهو رافع

وصيته ﷺ إلى ربه ﷻ.. وهكذا هي لكل داعٍ بها، وهكذا تكون أوقع ما تكون الوصية، وأسرع ما تكون من رب العالمين إجابتها.. أوليست قيمتها ممَّن أوصى بها ﷺ؟!

إنه صك من رسول الله ﷺ محفوظ في صدر المسلم يظهره لربه سبحانه متشرِّفًا به، وربك أعلم بما في صدور العالمين.. يرفعه كوصية من رسول الله ﷺ به، فالرسول ﷺ حين يرفع إلى ربه دعاءً له هو ﷺ، أو يرفعه عنه واحدٌ من أمته بعد موته ﷺ فإن الله أعظم ما يكون عليه غَيْرة، وأسرع ما يكون له إجابة.. وهذا أعظم ما يكون كسبًا لكل داعٍ بهذا الدعاء.. ولكأن رسول الله ﷺ دعا لنفسه ودعا لمَن دعا لنفسه بهذا الدعاء.. فكان الاقتداء برسول الله ﷺ ومع رسول الله ﷺ إذ كان رفعي ورفعك هذا الدعاء صحبةً لرسول الله ﷺ في دعائه عند خالقه سبحانه، وكان وصية لأغلى خلق الله، وهو ﷺ الأغلى والأعلى من الراحلين والقادمين إلى يوم الدين، فكان جواب الله له محقَّقًا.

إن هذا الدعاء العظيم لم يولد في نفسٍ متراخية مسترخية.. وحاشاه، فالله هو أعلم بنفوس العالمين، وأعلم بما يدور من هموم في نفس رسوله ﷺ، وكأنه ﷺ المرآة لما يدور في نفوس أمته أفرادًا، ومجتمعات بأكملها، ومما يدور في أعظم أمة بعظمتها، ولا غرابة -واللهِ- في هذا أبدًا. وهذا من صلب رسالته التي هي للعالمين، فكانت رحمته للعالمين ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

دعاءٌ مثالٌ لجوامع الكلم:

يتساءل المرء كثيرًا وهو يقف أمام مثل هذا الحديث العظيم من أحاديث

رسول الله ﷺ.. فيعجب كيف جمع فيها رسول الله ﷺ هذه المعاني في مختلف النفوس، والدور، والعصور، والبلدان، والأزمان في كلمات معدودات، رغم أنها في صلب الحقائق لا في الهوامش والتوصيفات، ولهذا أسرار كثيرة أذكر منها - وباختصار شديد - **ثلاثةً فقط:**

السِّرُّ الأول: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التوبة:١٢٨، ١٢٩][(١)].

السِّرُّ الثاني: إعلام الله ﷻ لرسوله ﷺ بما سيقع في أمته، فكان إعلامه وتعليمه لذلك العلم العظيم الشامل إلى أن تقوم الساعة إحاطة لدعواته بكل شيء.. فلم يُفلت شيئًا، ولم ينسَ أحدًا، ولم يغفل عن أحدٍ ممَّن هم في سفينته وهم أمته.. ولذا أعطاه الله الخصوصية القادمة- فأضحى ﷺ كأنه حي معهم جميعًا.

السِّرُّ الثالث: من خصائصه ﷺ جوامع الكلم؛ فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**فُضِّلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ: أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ، وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ طَهُورًا وَمَسْجِدًا، وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً، وَخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ**»[(٢)].

مطلع الكلمات:

كلمات رسول الله ﷺ تعايش تفاصيل حياتنا «**اللهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، ابْنُ عَبْدِكَ،**

(١) ولقد كتبت معايشة حول هاتين الآيتين الكريمتين في كُتيِّب، لعل الله ﷻ يُيسِّر إخراجه.

(٢) رواه مسلم (٥٢٣).

ابْنُ أَمَتِكَ»: هكذا هو المؤمن بين يدي ربه.. إنها ليست كلمات من فراغ.. إنها لحن الإياب والعَوْدة.. إياب النفس ورجوعها بآلامها.. مثقلة بهمومها.. مقهورة بديونها.. فارَّة إليك سبحانك -وأنت القاهر فوق كل قاهر- ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٨] لائذًا بك مِنْ قَهْرِ عبدٍ من عبيدك سبحانك يريدون قهر نفسه قهرًا... فمَن يقهر هؤلاء القاهرين لعباده إلا ﴿ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ﴾ ﷻ.. بل مَن يردهم عن هذا المقهور وذاك كيف يشاء، أما الله رب العالمين فإن شاء ردهم وقهرهم بقهره، وإن شاء برحمته وسعته رحمهم وهو أرحم الراحمين..

هذا دعاء رسول الله ﷺ هو من آتاه الله جوامع الكلم، وهو من جعله من أنفسنا -نحن الناس- يقدِّم هذا الدعاء الواحد، فإذا به كلمات للعالمين إلى أن يرث الله الأرض ومَن عليها... فسبحان الله كيف تساق إليه جوامع الكلم من نفوسنا.. من أعماق عواطفنا ومشاعرنا.. من أتون معايشتنا ووقائعنا وحرقة أعصابنا وحرارة آلامنا بعثت كلمات الحياة.. كلمات الروح.. كلمات المعاناة.. كلمات الصبر في ذاتها.. وكلمات الشكوى في أعماقها.. كلمات الشكر المقدم في لحظتها.. وكلمات الرضا أيًّا كانت نتائجها...

تدبَّر كيف أُعطي رسول الله ﷺ جوامع الكلم.. فلم تكن مجرد زينة تعبير، ولا سحرًا ولا تغريرًا.. إنما الجوامع لكل الحالات المماثلة، ولكل النفوس في كل الأزمان المتتالية.

الجوامع لكل أسباب الإجابة، المثيرة لجميع مكامن الرَّغَب والرَّهَب في كل نفس، وكل رجاء وإشفاق.

ولا يمكن لأي قلم أو لسان أن يبلغ منتهاها... وإنما تبلغ الكلمات الكريمات بصاحبها منتهاه هو في موقفه أيًّا كان موقفه وعلى حسب زمانه وحدِّه.. أما كلماته فتتجاوز الزمان والمكان، لأنها جوامع الكلم، ولأنه ﷺ ﴿مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾ [التوبة:١٢٨]، أنتم جميعًا كل واحدٍ على حدة، وأنتم مجتمعون، ذلك أنها جوامع الكلم من جميع جوانب الحدث الواحد، ولكل أعماقه وأبعاده وأوساعه، ولكل الأفراد في كل عصورهم... ثم هي الكلمات الغالبة على كل موقف.. لأنها الوحي ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾ [سورة النجم].

وهكذا يجري منه ﷺ، بل يتفجَّر كل ذكرٍ، وهذا الذي يجب أن نستحضره عند كل ما ورد عنه ﷺ في أذكار الهم والحزن، وأذكار الاستعاذات، وأذكار الاستغفار، وأذكار التوبة، وأذكار الاستفتاح للصلاة، وأذكار الصباح والمساء، وأذكار الخوف، وأذكار الرجاء، وأذكار الاستنصار، وأذكار الاستجارة، وأذكار الاستغاثة.

الكلمة الأولى:

سليل العبودية يتزلَّف[١] بها إليك ربي

«اللهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، ابْنُ عَبْدِكَ، ابْنُ أَمَتِكَ»

هذه هي حقيقتنا وحقيقة آبائنا وأمهاتنا.. الحقيقة العميقة البعيدة الراسخة

(١) عَنْ زَيْدِ بْنِ ظَبْيَانَ رَفَعَهُ إِلَى أَبِي ذَرٍّ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «ثَلَاثَةٌ يُحِبُّهُمُ اللهُ وَثَلَاثَةٌ يُبْغِضُهُمُ اللهُ؛ أَمَّا الَّذِينَ يُحِبُّهُمُ اللهُ فَرَجُلٌ أَتَى قَوْمًا فَسَأَلَهُمْ بِاللهِ وَلَمْ يَسْأَلْهُمْ بِقَرَابَةٍ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ، فَتَخَلَّفَ رَجُلٌ بِأَعْقَابِهِمْ فَأَعْطَاهُ سِرًّا لَا يَعْلَمُ بِعَطِيَّتِهِ إِلَّا اللهُ وَالَّذِي أَعْطَاهُ، وَقَوْمٌ سَارُوا لَيْلَهُمْ حَتَّى إِذَا كَانَ النَّوْمُ أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِمَّا يَعْدِلُ نَزَلُوا فَوَضَعُوا رُؤُوسَهُمْ، **فَقَامَ يَتَمَلَّقُنِي** وَيَتْلُوا آيَاتِي، وَرَجُلٌ كَانَ فِي سَرِيَّةٍ، فَلَقِيَ الْعَدُوَّ فَهُزِمُوا، فَأَقْبَلَ بِصَدْرِهِ، حَتَّى يُقْتَلَ أَوْ يُفْتَحَ لَهُ، وَالثَّلَاثَةُ الَّذِينَ يُبْغِضُهُمُ اللهُ الشَّيْخُ الزَّانِي، وَالْفَقِيرُ الْمُخْتَالُ، وَالْغَنِيُّ الظَّلُومُ». رواه أحمد (٢١٣٥٥)، وابن خزيمة في صحيحه (٢٤٥٦)، وابن حبان في صحيحه (٣٨٠)، والحاكم (١٥٢٠)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ، ووافقه الذهبي. **ومعنى التملُّق والتزلُّف واحد وهو التقرُّب**؛ كما قال الله تعالى عن المشركين: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، وقال سبحانه: ﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧]، إنما هذه الكلمات في صدر هذا الدعاء زلفى، وأي زلفى! فاللهم اجعلنا ممَّن له عند ربه ﴿وَزُلَفٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ﴾ [هود: ١١٤]، وزلفى في كل وقت، واجعلنا ممَّن قلت فيه: ﴿فَغَفَرۡنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ﴾ [ص: ٢٥]، وأي تقرُّبٍ وزلفى إلى الله أعظم مما في هذا الحديث العظيم..

التي تغيب عنَّا في التاريخ الماضي كله، ونغفل عنها في حياتنا وحالاتنا العادية... هنا يكشفها رسول الله ﷺ من خلال الموقف العصيب على تلك النفس أمام ربها سبحانه... إذ تُظهر اعترافها بحقيقتها مع عرفانها بفضل ربها؛ اعترافها بعبوديتها المطلقة.. عبوديتها التي لا تستند إلا إلى نسب عبوديةٍ مثلها.. متسلسلة في العبودية.. من كل جهاتها عبودية.. سواءٌ من طريق آبائها أو أمهاتها... فلا توقف، ولا تحوُّل عن العبودية أبدًا حتى بلوغ النفس الواحدة الأولى؛ نفس عبد الله الأول فينا آدم عليه السلام ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

العبودية لربي عنواني وشجرتي: «اللهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، ابْنُ عَبْدِكَ، ابْنُ أَمَتِكَ»: هذا كامل عنواني وشجرتي النسبية - يا مَن لا تخفى عليك خافية - أنا عريق يا ربي.. في العبودية.. أنا كيانٌ يا ربي قائم بين يديك وأُوشك أن ألحق بسلالة طويلة إلى أبينا الأكبر آدم عليه السلام وهم الآن بين يديك.. فما تغني صورتي، وما يغني اسمي وأسماء آبائي في هذا الموقف.. وما تُغني قوتي وأنت أعلم بحقيقتي وأعلم بضعفي، لا ولم ولن تخفى عليك خافية في نفسي، ولا في الأرض ولا في السماء.. ولا أصغر من ذلك ولا أكبر..

«**اللهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، ابْنُ عَبْدِكَ، ابْنُ أَمَتِكَ**»: فيا رب هذا حال مَنْ لا عنوانَ له ولا اسم يذكره لأنك عالم الغيب والشهادة.. وأنت مَنْ خلقته وخلقت آباءه.. فكيف تغيب عنك شكواه، وحاله الذي بلغ به الآن مبلغًا عصيبًا عسيرًا..

لقد اختفى التفاخر بالسلالات وسلاسل الأنساب، ذهبتْ عن الذكر هنا حتى الأسماء ولم يحضر في هذا المقام حتى اسمي أنا الداعي الراجي المُتملِّق

بين يدي ربه؛ فلم يَرِدْ في رواية واحدة هنا [اللهم إني عبدك فلان]، ولا [فلان بن فلان]... فكيف لا تغيب الأسماء كلها هنا، وقد حضرتْ هنا كل أسمائه الحسنى... وسوف يسأل العبد ربه في هذا الدعاء بأسماء الله الحسنى.. سوف يقول هاتفًا مستغيثًا: «**أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ**».

لا مقام ولا قيمة لذكر اسمي هنا أبدًا: «**اللهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، ابْنُ عَبْدِكَ، ابْنُ أَمَتِكَ**»: نعم؛ هي كلمات عظيمات.. ومن عظمتها أنها لا تخرج جافَّة جرداء عن المناشدة بها وعند وقوع المصاب، فنحن لا نقولها ونقف بها بين يديك إلا بطوفان من التأثير يطوف بالنفس... أكان لي أن أعرف هذا لولا رسولك الذي يَعْرِفُ أبواب إجابتك.. ونحن نقولها بنشيج يرتفع إليك من أعماق نفوسنا؛ لأن مَنْ عَلَّمنا إياها هو مَن جاءنا من أنفسنا، من داخلنا، من أعماقنا ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾.

يا رب: لو عرضتُ حالي على أحدٍ سواك -معاذ الله- لكان أول ما طالبوني به هو اسمي، وممن أنا، ومن أين أصلي وفصلي.. وبطاقتي، وهويتي، وإثباتاتي!

سبحانك؛ فرسولك ما علَّمنا ذلك في دعائنا لك هذا يا رب.. ومَنْ أَعْرَف بك سبحانك من رسولك ﷺ.. ومَن يلقننا كيف نتحدث بين يديك كما يعلِّمنا رسولك ﷺ، يعلِّمنا كما يُعَلِّمُ الأب صغيره النطق حرفًا حرفًا.. وكلمة كلمة.. حتى يبلغ أحدنا مبلغه، وتُقْضى بإذن الله حاجته.. وتكون حاجته سببًا لمزيد قربه منك يا ربنا.

يا رب: أأذكر اسمي وأسماء آبائي.. وأنا جئت أسألك بأسمائك الحسنى كلها؟!

التزلُّف بعبوديتي.. لا الإخبار بها:

«**اللهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، ابْنُ عَبْدِكَ، ابْنُ أَمَتِكَ**»: معاذ الله أن يكون إخبارًا.. إنما هو طلبٌ مني، وتعبُّدٌ، وتزلُّفٌ، ورجاء.. أفخر به، وألوذ إليه.. فأي عزة ورفعة

أعظم لي وأنا «**عَبْدُكَ، ابْنُ عَبْدِكَ، ابْنُ أَمَتِكَ**»، وحين يقول رسول الله ﷺ هذه الكلمات فإنه لا يقولها كحقيقة فحسب.. فالله سبحانه أَعْلَمُ بذلك.. أَعْلَمُ بأنه عبده، وأنه سبحانه ربه، وإنما يقولها ﷺ زلفى إلى الله ﷻ يتزلف بها إلى ربه... فهي عبودية وتعبدٌ.. واعترافٌ وتقربٌ.. وتذللٌ وتخشعٌ.. واستفتاح وتوسلٌ، وهو ﷺ أول العابدين، ويشق لنا في هذا السبيل الصراط المستقيم ﷺ.

وهذا خيط دقيق فارق ما بين مقامين لا يعلم ما بينهما إلا الله.. خيطان مختلفان؛ الخيط الأبيض من الخيط الأسود..؛ طريق الإخبار، أو طريق التعبُّد والتقرُّب.. فمِن هذا الطريق يتجه العبد إلى مقام أعلى وإلا بقي قابعًا في مقامه، أو سلك طريق التِّيه.. فإن مجرد ترديد «اللهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ» غَيْرَ شاعر بهذا التعبد القلبي العظيم، فلم يفكِّر في لحظته هذه في عظمتها ومعانيها فهو الغافل، أو كأنه المُخْبِرُ عن نفسه.. فهذا برود، بل جمود.

عبق بِرِّ الوالدين من هذا الدعاء:

«**اللهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، ابْنُ عَبْدِكَ، ابْنُ أَمَتِكَ**»: إن هذه الصياغة العظيمة لدى النفس المتدبرة تجعل أوَّلَ مذكورٍ عندها في هذا الدعاء في المذكورين أمام رب العالمين هما الوالدين، فقوله: «**ابْنُ عَبْدِكَ، ابْنُ أَمَتِكَ**» فأنت ابن مَنْ مِنَ الرجال؟ وابن مَنْ مِنَ النساء؟ فمَن هو العبد الأقرب والأول، والأَمَة الأقرب والأولى بالنسبة لي إلا أبي وأمي ﷺ، إذًا فإني في هذا المقام جمعت الدعاء لهما مع دعائي لنفسي.. جمعت الاستغاثة لهما كما هي استغاثة لي... جمعت التقرُّب لربي معهما.. جمعت الاعتراف عني بالعبودية المطلقة وعنهما.. جمعت الاعتذار عني وعن عجزي وعنهما.. جمعت حشد العباد رجالًا ونساءً لربي، وجعلت والديَّ أولهم، والمقدَّمَيْن بينهم رجالًا ونساء.

هكذا جعلني رسول الله ﷺ أسلك طريقَ بر والدَيَّ من حيث لا أدري.. وأدعُو لهما بكل أسماء الله الحسنى بأعظم ما يكون.. وإن لم يكونا هما المقصودين الأساسيين إلا أنهما كانا الأوليين المذكورين من بين الناس أجمعين، بل هما الوحيدان المذكوران معي ومن بعدهما والداهما.. إلى منتهى ما يستحضره العقل بعدهما.

فصلَّى الله وسلَّمَ على مَن علَّمنا ما لا نعلم.. وعاش أحوالَنا في حياتنا كما هي من نفوسنا في داخلنا، فكان هذا الدعاء العظيم حقًّا ماثلًا.. ومثالًا لجميع الأدعية وفرقانًا.

الكلمة الشريفة الثانية

تسليم ناصيتي بيديك قبل حُكْمِك وقضائك سبحانك

«نَاصِيَتِي بِيَدِكَ»

أيُّ ناصيةٍ أكرمُ من ناصية صاحب هذه الدعوة رسول الله ﷺ.. ممن أشرقت مِن ناصيته هذه الدعوة ﷺ.. فأصبحت بإشراقتها الأولى تلك تشرق مع كل مَن يقولها ويتدبرها من بعده إلى يوم القيامة.. وما كانت دعوات ملقاة علينا إلقاءً، ولا منفصلة عنا، ولا ترانيم ليس لها من نصيبٍ من النفس إلا ترديد اللسان بألحان أو بنبرة، لا والله؛ فالحقيقة هنا تختلف، فهو مَن قال الله فيه: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة:١٢٨] . إنها دعوة ممن قال الله فيه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

«**نَاصِيَتِي بِيَدِكَ**»: ناصيتي؛ فيا رب شرِّف ناصيتي وأَكْرِمْها أن تكون بيدك.. وأعوذ بك ربي أن تترك ناصيتي بيد غيرك.. إذًا فإنه التِّيهُ والذلةُ والهوانُ لعبدٍ يحبك.

«**نَاصِيَتِي بِيَدِكَ**»: فمَن ذا الذي يا رب أخذ بناصية رسول الله ﷺ فبلغ به المنتهى في كل ميدان سباق ومتسابقين، فكان آدم عليه السلام ومن دونه تحت لوائه ﷺ.. يا رب خذ بناصيتي فوالله إنها لرجائي ورجوتي، كما أخذت بناصية سيدنا وإمامنا

رسولك ﷺ.. أخذت بنواصي الأنبياء عليهم السلام والصِّدِّيقين والشهداء والصالحين.. أخذت بتلك النواصي إلى الخير والبر والإحسان فكانوا للمتقين إمامًا.

«**نَاصِيَتِي بِيَدِكَ**»: يا رب ليس بعد هذه الدعوة إن لم تتحقق -مستعيذًا بالله من ذلك- إلا الهلاك والعياذ بالله.. فمن أضل وأذل ممن أخذ الشيطان بناصيته -عياذًا بالله تعالى من ذلك-.. فلا يزال الشيطان يضل من أخذ بناصيته الكاذبة الخاطئة منحدرًا به في أودية الهوى وعبادة نفسه، وانفلات في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل.. حتى إذا جاءه الموت أخذ يتخبطه ويتخبطه حتى يصرخ يستغيث، والشيطان -عليه لعنة الله- شامت بجواره يقول: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الحشر: ١٦].

ما بين ناصية وناصية:

«**نَاصِيَتِي بِيَدِكَ**»: وشتان بين ناصية قادت كل النواصي الخيِّرة نحو ربها ﷻ.. وبين ناصية عاندتها وحادَّتها؛ فأصابها بعنادها حُكْمُك الذي كتبته عليها، فقلت ربي - وقولك الحق -: ﴿كَلَآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ ٨ أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ٩ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ١٠ أَرَءَيۡتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ ١١ أَوۡ أَمَرَ بِٱلتَّقۡوَىٰٓ ١٢ أَرَءَيۡتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ١٣ أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ١٤ كَلَّا لَئِن لَّمۡ يَنتَهِ لَنَسۡفَعَۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ١٥ نَاصِيَةٖ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٖ ١٦ فَلۡيَدۡعُ نَادِيَهُۥ ١٧ سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ١٨ كَلَّا لَا تُطِعۡهُ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب ۩﴾ [سورة العلق]..

وهكذا انشق طريقان لجميع النواصي من بداية الرسالة.. فنعوذ بك ربَّنا مِن أن تكون ناصية غير ناصية رسولك ﷺ تتقدم نواصينا.. إنها الناصية التي لا تنافسها ناصية للخليقة نفعًا ونورًا وهداية وسبقًا إلى الله.

«**نَاصِيَتِي بِيَدِكَ**»: يا رب من أسلم ناصيته لربه.. فقد أعلن الإسلام والاستسلام لحكمه وحكمته، وأعلن الرضا بقضائه وقدره، وأعلن حسن الظن المطلق بتوفيق ربه وحكمته.

ورب العالمين يقول: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]، ويقول سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

«**نَاصِيَتِي بِيَدِكَ**»: كم يحتاج المضطرب المهموم المغموم أن يأخذ بيده من يعرف الطريق ويخرجه من مأزقه.. فهل من هداية للمخرج من كل ملمة أو مهمة من يد الله تأخذ بنواصينا وهو سبحانه صاحب الصراط ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٣]، ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [سورة الفاتحة].

«**نَاصِيَتِي بِيَدِكَ**»: صَلَّى الله وسَلَّم عليك يا قائد النواصي في الذرية كلها.. يا مَن سار الناجون على قدمك.. وجعلوا نواصيهم تبعًا لناصيتك فسَلِمُوا ولم يُخدَشوا ولم يكدشوا من كلاليب الصراط في يوم يؤخذ بالنواصي والأقدام...

الكلمة الثالثة الشريفة

إعلان الرضا بالحكم قبل رفع السؤال

«مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ»

«**مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ**»: نعم؛ ماضٍ في حكمك وأنا راضٍ بحكمك قبل أن أعرف حكمك، وأنا أعلن رضاي يا رب في مطلع صباح كل يوم، وفي ابتداء مساء كل يوم، وأبايع على ذلك، متشرِّبًا حتى العروق ذاك المذاق؛ كما قال النبي ﷺ: «**ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا**»[(١)]، فتخصيص كلمة «رَبًّا» إنما هو عنوان الرضا من العبد بما يحكم به الرب ويقضي به، فالرب هو الذي يُرَبِّي عبده بقدره وتدبيره سواء كان خيرًا أو شرًّا، فإنني مؤمن بقضائك وقدرك راضٍ بما حكمت فيَّ.. موقن أنك لا تحكم إلا ما هو خير لي.. فكما أن «**نَاصِيَتِي بِيَدِكَ**»، فإنه «**مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ**» هذه هي الحقيقة الكاملة.. وهذا هو إيماني المطلق الذي لو خُيِّرت ما اخترت سواه.. إذ مَنْ أرحم بي منك حتى أُسْلِمه ناصيتي، ومن حكمه الرحمة حتى أرضى بحكمه، ومن سبقت رحمته غضبه سواك ربي حتى أثق بأن رحمته تسبق عدله، بل لا شيء في الوجود كله مَنْ رحمته تسبق عدله دائمًا وأبدًا سواك ربي، وفي الحديث القدسي: «**إِنَّ اللهَ كَتَبَ كِتَابًا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الْخَلْقَ: إِنَّ رَحْمَتِي**

(١) رواه مسلم (٣٤).

سَبَقَتْ غَضَبِي، فَهُوَ مَكْتُوبٌ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ»[١].

فسبحان الله؛ كيف جمع رسول الله ﷺ هذا، كيف اجتمعت له جوامع الكلم فكانت كل هذه الجوامع الثلاث وكلها جامعة.. وكلها لصالح الداعي بها مائة بالمائة.. بينما الجاهل بالله يظن في هذه الكلمات الظنون... فهنا العلم بالله يقين أن هذه الكلمات الثلاث كلها لك أيها الداعي... لأنها واقعةٌ على كل أحدٍ حقيقة.. إلا من أعلنها أعلن الإيمان، وأعلن الإسلام والاستسلام، وأعلن الرضى بقضاء الرحمن.. وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان، وهل جزاء الرضا إلا الرضا والرضوان، والنبي ﷺ يقول: «**إِنَّ عِظَمَ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ، وَإِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ**»[٢].

«**مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ**»: هنا عبد من عبادك قد غلبه دَينُه، وقَهَرَه عدوُّه، وأضناه في ليله وأذلَّه في نهاره وأوعده إيعادًا يُظلم به مآله... هو هذا العبد الذي لم يجد في هذه الأرض الواسعة ملجأً ولا ملاذًا فجاء رسول الله ﷺ وهو أعرف بمداخل قبول الدعاء، وأعرف بجوامع السؤال والثناء، وهو جزء لا يتجزأ من نفس كل مغموم ومكلوم ومظلوم فنطق بكلمات لن تبلغها اللغات ولا الألسنة ولا الأقلام في كل زمان وعلى أي لسان.

إنه مَن قال الله ﷻ فيه: ﴿**وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ**﴾ [سورة النجم]، وإنه رسول الله ﷺ القائل: «**وَأُوتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ**»[٣]، وإنه من قال الله

---

(١) رواه البخاري (٧٥٥٤).

(٢) رواه الترمذي (٢٣٩٦)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ، وابن ماجه (٤٠٣١).

(٣) رواه مسلم (٥٢٣).

فيه: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] فمن يملك كل هذا حتى يأتينا بدعاء نحو هذا؟! رُفِعَت الأقلام وجفَّت الصحف.

ولأنه رسول الله ﷺ وأعلم الخلق بربه سبحانه: فهو مَن قال قولًا ومفتاحه منه وفيه... والجاهل لا يرى المفتاح إلا قيدًا، والمؤمن يكاد يرى الربيع قادمًا قريبًا ليحوِّل خراب أرضك إلى عمار ويحوِّل ظلمة صدرك إلى أنوار.. أوليس بعد هذا الترجي والثناء، وبعد الاستغاثة بالأسماء الحسنى مباشرة جاء الخبر بالخير صريحًا «**أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجِلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي**».

«**مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ**»: «**نَاصِيَتِي بِيَدِكَ**» فلا تقديم ولا تأخير، ولا إلى هنا ولا إلى هناك حسب هواي ولا حَسْب ما أُريد... وإلى هنا رفعتُ ما ابتدأ الحكم، فإذا جاء الحكم ووقع فإنه «**مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ**».

وأيًّا كان ذلك الحكم فإنه العدل في كل تفاصيله وكل جزئياته.. وإنه العدل المطلق فيَّ أنا وإن لم يعلم الناس بالحقيقة وظنوا أني لا أستحق ذلك الابتلاء، أو عللوا بأنه اختبار ورفعة درجة... فذلك رجائي إلا أن حكم الله فيَّ كان عدلًا مطلقًا وظني حسن بالله مطلقًا، وهل أنا مثل أكرم خلق الله على الله بعد الأنبياء عليهم السلام -أصحاب رسول الله ﷺ- الذين قال الله ﷻ فيهم في غزوة أحد وقد أصيبوا بما أصيبوا به: ﴿**أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ**﴾ [آل عمران: ١٦٥].

فأنا أعلم الناس بنفسي.. وتقصيري، وخطيئتي.. وما هذا الذي جعله الناس وأخذوا يعتذرون لي فيه ويحسنون الظن فيَّ إلا دليل عندي على أعظم نعمة من نعم الله علي؛ وهي نعمة ستر الله سبحانه عليَّ.

الكلمة الشريفة الرابعة

السؤال بأسماء الله الحسنى كلها

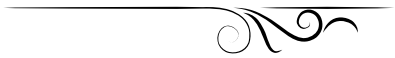

«أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ»

عنوان الإجابة بالتهيئة بأعظم زلفى: كل التهيئة العظيمة التي تقدمتْ.. إنما تقدمت السؤال، بل تقدمت المسؤول به وهي أسماء الله الحسنى كلها، والمسؤول إياه ﷻ، ويا له من سؤال...

ولقد طفت في ميادين الأدعية بأنواعها المعروفة.. وكتبت فيها، وكتبت لها مقدمات مختصرة مركزة مثل كُتَيِّب [أوراد أهل السنة والجماعة] وكتيب: [غراس أهل الجنة]، وما ورد في كتاب [قبس من الوادي المقدس]، أو كتاب [الوفادة على الله كأنك تراه].

فلا والله ما رأيت دعاءً يحمل زلفى عبدٍ من عباد الله إلى الله مثل هذه الزلفى إليه سبحانه بأسمائه الحسنى بهذه الصيغة والحقيقة.. وما رأيت سؤالًا له سبحانه بأسمائه الحسنى قد حشد رسول الله ﷺ – وهو أعلم الناس بأسماء الله الحسنى – حشدًا لا نظير له في الوجود أبدًا.. حشد ﷺ بكافة طرق الحصر التي يعلمها العباد، وما استثنى اسمًا أبدًا.

بل حشد رسول الله ﷺ أسماءً أنزلها الله ﷻ في كتبٍ ذهبت فلا يُعلم عنها

شيء، أو حُرِّفَت، أو دَرَسَتْ، فلم يَعُد لها ذكر، وأسماء علَّمها الله عبادًا له من قبل، قد ذهبوا وماتوا وذهب العلم بها مع ذهاب أصحابها.. فاستخرجها رسول الله ﷺ وسأل ربه بها، والله ﷻ بها أعلم، أو أسماء ادَّخرها الله عنده سبحانه واستأثر بها في علم الغيب عنده ﷻ فقال: «**أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ**»، ولا يزال رسول الله ﷺ يحشد من أسماء الله الحسنى، ويحشد، ثم يحشد، حتى بلغ استقصاؤه وحشده مبلغًا لا يمكن بلوغ غيره إياه أبدًا والله، وإن تكلَّفوا، أو ألَّفوا، أو تجمَّعوا فجمَّعوا وجمعوا.. فمَن يبلغ علمه علم الغيب، ومَن يبلغ علمه أمورًا أُزيلت من الوجود وذهبت مع أصحابها إلى يوم القيامة، ثم مَن يبلغ علم ما استأثر الله ﷻ به من أسمائه الحسنى؟

لقد بلغ رسول الله ﷺ هذا المبلغ، وسأل ربه هذا السؤال، بل سأله بكل اسم «**اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ**»، وليس اسمًا واحدًا منها..

يا رب أنا ما طلبت معرفة كل اسم استأثرت به في علم الغيب عندك ولكني أسألك به.. فسؤالي به هو زلفتي ووسيلتي إليك، وعلمك به يغنيني عن علمي به، وماذا يعني علمي به، وماذا يزيد...

أرأيت كيف استخرج رسول الله ﷺ هذه الزلفى من غيوب لا يعلمها نبي مرسل، ولا مَلَك مقرَّب، ولا أحد من خلق الله... فهو لم يطلب معرفتها، ولكنه سأل بها واستغنى بعلم الله بها عن علمه بها هو، والله هو الغني الحق.

تَنَبَّه لسعة هذا الحرف: «**بِكُلِّ**»: «**أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ**»: فإذا رجعنا إلى أول مناشدة الرسول ﷺ ربه نجد أنه عند أول السؤال بأسماء الله الحسنى قال حرفًا عظيمًا.. إذا استحضرته عند كل سؤال من السؤالات الثلاثة المتبقية

أعطاك عظمة جديدة فريدة جامعة للسؤال؛ ذلك الحرف هو حرف «**بِكُلِّ**»، وحينها تكون الصيغة التي تُرْفَعُ إلى الله ﷻ كاملة الاستقصاء أي تكون بمعنى: «**أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ**»، تعني: وبكلِّ «**اسمٍ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، وبكلِّ اسمٍ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، وبكلِّ اسمٍ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، وبكلِّ اسمٍ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ**»، إذ ما جاء بعد السؤال الأول من سؤال إنما هو تفصيل له.

فماذا بقي بعد هذا؟!

تَنَبَّه لخصوصية واختصاص «**هُوَ لَكَ**»: أقول: هذا بعض عظمة أسماء الله التي لا يبلغها عبد، ومع هذا فالله ﷻ يقول: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ليس الموضوع موضوع تعداد الأسماء الحسنى ولا كثرتها: فهو كذلك وهو واضح وأنها بغير حصر وليس لها حد، وما أعلمنا الله منها هو تسعة وتسعون اسمًا، أو أنَّ التسعة والتسعين هي الأسماء الموعود لـمَن أحصاها كوفئ بالجنة؛ لقوله ﷺ: «**إِنَّ لِلهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ**»(١).

«**أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ**»: هكذا يعلمنا رسول الله ﷺ ما لا نعلم.. ويدخلنا مقامات ما كان لنا بدونه ﷺ أن ندخل أو نفهم.. إن العظمة في الكلمة الأولى فوق التصور والتصوير والتقريب.

أولها: أن هذه العظمة جاءت من عبدٍ بلغ المنتهى من التذلل بين يدي ربه سبحانه، والمنتهى من الاستسلام، والمنتهى في حسن الظن بحكم ربه، والمنتهى

(١) رواه البخاري (٢٧٣٦).

في اعتقاد الحق والرضا بحكم ربه «**نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ**».

تَنَبَّه هنا لـ «هُوَ» وما فيها من عظمة: «**أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ**»: فمن أراد أن يعرف بعض قيمة هذه الكلمة «**هُوَ**» هنا في هذه العبارة الكريمة فَلْيَقُلْها بدون كلمة «هُوَ»، فتكون «**أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ لَكَ**» أليست صحيحة؟ والجواب: بلى صحيحة، ولكن أين هذه من هذه... أين «**أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ لَكَ**» من قول المصطفى ﷺ: «**أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ**»؟ إنه التعظيم الذي لن يبلغ أحد تصوره لأسماء الله الحسنى.

إنها من قبيل ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]، وقوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [سورة الحشر]، إن الحرف «هُوَ» في هذا المقام للإبعاد في التعظيم.. إلى ما لا منتهى لعظمته، لا عدًّا ولا حدًّا.

فسبحان الله العظيم؛ ما أعظم الدعاء بقوله ﷺ: «**بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ**» يُخْرِجُ إدراك التعظيم من حدود معرفة المعنى اللغوي وأي اعتبارٍ آخر إلى التعظيم المطلق «**هُوَ لَكَ**»، فمُتحدِّث عن أسماء الله الحسنى لا يزيد القلب إلا جرأة على الله، ويزيد القلب غلظة، ويزيد الحس قسوة، ويزيد الخُلُقَ جلافة، وربما هذا المتحدث أبحر في اللغة، وتعمَّق في استخراج جذور الكلمة، وفرَّع عليها وشقَّق وتوسَّع، ثم أخرجها عن نسقها القرآني، وأدخلها في قيل وقال، وإن قالوا قلنا، وقد اعترضوا فأجبنا، وهكذا وهكذا إلى ما لا نهاية، طول ذيل وسوء نيل،

وبُعْد عن الله، وصدٌّ عن سبيل كلام الله، أما الآخر فمرجعه في حديثه واحد؛ وهو أن هذا الاسم «**هُوَ لَكَ**»، فهو يتحدث بهذا التخصيص في العظمة.. ومن هنا يَنهل ويُنهِل، فالموضوع ليس موضوع تعريف لغوي محض، إنما الموضوع يعود إلى عبادة عظيمة، وتوجهٍ صادق، وإلحاح مشفق؛ يكمن في قوله: «**أَسْأَلُكَ**» فكيف يكون السؤال مقبولًا والدعاء به مجابًا إذا لم يدرك السائل باسم الله أن هذا الاسم «**هُوَ لَكَ**»... فهو يسأل ويعرف جيدًا مَن يسأل.

تَنَبَّه للتعظيم في مجموع «**بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ**»: ثم إن التعظيم «**بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ**» لكل اسمٍ على حدة، وليس التعظيم محصورًا على جميع الأسماء إذا اجتمعت فحسب، وإنما هو «بِكُلِّ اسْمٍ»، وإن تفرد فقد تفرَّد.

«**أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ**»: فكل اسم من أسماء الله الحسنى حقه التعرف عليه.. حقه التدبر... حقه الدائم هو المعرفة بأنه «**هُوَ لَكَ**» هو لله ﷻ.. حقه الإجلال والمعايشة في معاني اسم الله ذاك وما يفيض على قلوبنا من معاني ذي الجلال.

وهذا التدبُّر للاسم من أسماء الله الحسنى لا يُعرَف كما ينبغي ما لم يؤخذ مع آيات الله ومع كلمات الله ﷻ.. هناك يكون التعرُّف بالله وعلى الله حقًّا، لأنه من كلام الله صاحب الأسماء الحسنى.

«**أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ**»: هنا ليس الموضوع موضوعًا نظريًّا ولا تنظيرًا.. وإنما هو سؤال باضطرار.. موضوع حاجة قائمة مُلِحَّة..﴿**لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ**﴾ [النجم: ٥٨]، وهنا رسول الله ﷺ يدلُّنا على الطريق لفك الكربة، وهو سؤال الله بكل اسم من أسمائه الحسنى دون استثناء، كما أنه يدلنا على الطريق بكلمة «هُوَ لَكَ»، فهذا التعظيم الحاضر يجب أن يحضر هنا، هذا التعظيم هو

من يكسر ظهر الكربات ولو كانت جبلًا؛ فتجعله أسماء الله الحسنى دكًّا ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ [الأعراف: ١٤٣]، فما في كلمة «**هُوَ لَكَ**» يضبط مسار السؤال حتى يصل إلى المنتهى ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢]، يحفظ السؤال من أن تضل به الغفلة، أو يتخطف الشيطان -نعوذ بالله منه- ناصية السؤال فيذهب بصاحبه بعيدًا عن مقصوده، ومساره.

التثبُّت أولًا من فهم: «**أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ**»: هنا تدبر جيدًا فهذه هي الكلمة الأولى التي بها ابتدأ النبي ﷺ تفصيل الأمر الأعظم، وهو بيان أسماء ربه الحسنى ﷻ.. فمَن لم يفهم هذه لم يفهم كل ما هو قادم بعدها كما ينبغي، وسرعان ما يلتبس عليه الأمر، ويعجز عن الجواب عن أتفه شبهة - عياذًا بالله من ذلك -! فالتثبت من فهم «**أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ**» قبل الانطلاق إلى الصور المذكورة بعدها وإنها لعظيمة؛ فإنَّ هذه تقعيد القاعدة للفهم، وتأسيس السلامة لأعظم علم.. والعروج في مدارج الإيمان بأسماء الله الحسنى، وذلك أن «بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ» إنما تساوي في القرآن تمامًا ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف:١٨٠]؛ فالأسماء الحسنى له وحده سبحانه على الاختصاص.. والأسماء الحسنى له وحده سبحانه منذ الأبد ومنذ الأزل.. حيث لا ابتداء.. ولا قبل.. فالأسماء الحسنى لله لأنها لا فارق بينها وبين الله تبارك الله رب العالمين.

فالانطلاقة في بيان الأسماء الحسنى في هذا الحديث كانت من الابتداء في هذا الحديث، وليس من هذه الفقرة العظيمة «**أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ**»، وإنما كان الابتداء من «**اللَّهُمَّ**» التي كان منها الابتداء... وسبحان الله؛ فكما هو الشأن

في هذا الحديث كذلك هو الشأن في حقيقة الأمر.. فالأمر في أسماء الله الحسنى قبل كل ابتداء.

فالحديث في أسماء الله الحسنى يساوي الحديث في الله ﷻ.. فمَن تجرَّأ على الحديث في أسماء الله هو متجرِّئ على الحديث عن الله.. لا فرق ولا خلاف، وهذا ما يعني أن ما سيأتي من تعداد لصور معرفة أسماء الله الحسنى إنما هي لله بشكل مطلق بلا ابتداء كما أنها بلا انتهاء..

تَنَبَّه للتفصيل القادم بعد «هُوَ لَكَ»: فما «**سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ**» مما أُعلمناه منك سبحانك الآن فحسب، وإنما من قبل كان ولا يزال «**هُوَ لَكَ**»، وما «**أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ**» فهذا لإعلام عبادك وإلا فإنه كان ولا يزال «**هُوَ لَكَ**»، وما «**عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ**» فإنما هو حسب تعريفك لبعض خلقك، وإلا فإنما في الأصل «**هُوَ لَكَ**»، وكذلك الأسماء التي «**اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ**» فلم تستأثر بها الآن أو أي آن.. بل هي فوق الآن والأوان والكون والمكان، وهو في الأساس كان ولا يزال «**هُوَ لَكَ**».

هل عرفنا الآن بعض المراد بقوله ﷺ أن «**بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ**» إنما هو السرمد الذي لا ابتداء له.. والأحسن فما ذكر بعدها إنما هو صور معرِّفة ليستوعبها العباد أن نقول لتفهيم بعض فيوض قول الله ﷻ: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣]، فهو ما أظهره الله تعالى ويظهره على مدى الزمان من «**سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ**» وما أظهرته لعبادك من أسماء، سواءٌ بإنزال كتبك، أو تخصيص بعض خلقك، وكذلك ما لم ولن يعرفه العباد في هذه الحياة مما «**اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ**».

فقوله ﷺ: «**هُوَ لَكَ**» أي أن اسم الله هو الله سبحانه أول بلا ابتداء، وآخر بلا انتهاء.

«**بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ**»: فإن اسمك لك ليس لأحدٍ سواك سبحانك، وأما اسم غيرك فليس له، وإنما هو مشاع لكل أحد، فكل بشر تسمَّى باسمٍ فإنما هو للناس جميعًا مَن شاء أن يسمِّي مَن يشاء بذلك الاسم سمَّى حتى لو كان من أسماء الأنبياء عليهم السلام، فكم من الخلق اسمه آدم ومحمد عليهما السلام.. بل كلما زاد الإنسان عظمة واشتهر ازداد الناس تسمية أبنائهم باسمه، وأما مَن سمَّاه الله ﷻ من البشر وقال: ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٧]، فلقد تسمَّى الناس باسمه من بعده كثيرًا، ذلك أن الناس لم تسمَّ بأسمائها، وأسماؤها لها ولغيرها على حدٍّ سواء، فهم مخلوقون، وأسماؤهم مخلوقة، فالاسم عند الخلق علامة الابتداء، وعلامة الخلق، كما قال سبحانه: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [النمل: ٦٤]، بينما أسماء الله الحسنى هي له، لا يتسمَّى بها أحدٌ سواه، ومَن تسمَّى بها فإنما يُثبت عبوديته ومخلوقيته، وطلب تبركه وبركته ورضاه، ويعلن ذلك بقوله: [عبد الرحمن، عبد الرحيم، عبد القوي، عبد الغفور، وهكذا، وهذه بعض معاني ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

دلالات عظيمة لـ «سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ»:

وهنا يأتي السؤال: مَن الذي سَمَّى أول البَشَر بـ [آدم]؟

والجواب: قد قال الله سبحانه للملائكة قبل أن يخلق آدم: ﴿إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن

طِينٍ﴾ [ص: ٧١]، إذًا فهو أخبرهم بهذا المخلوق ولم يخبرهم باسمه، حتى إذا كان اجتماع الملائكة للاختبار العظيم للخلافة أعلن الله سبحانه لهم اسمه، وما كان أحد يعرف اسمه، فقال الله سبحانه: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣٣]، وبعد ذلك ناداه الله في كل المواقف باسمه كما هو واضح في الآيات، ومن بعد إعلان تسمية الله ﷻ لآدم بـ [آدم]، وتعليمه الأسماء كلها، وتعليمه ذريته هذا العلم الواسع الكبير العجيب أصبح البشر هم مَن يُسَمُّون بعضهم بعضًا.. وذلك شاهد على أنه مخلوق يُسَمِّي مخلوقًا.. وهذا المخلوق يُسَمِّي ما يشاء من المخلوقات.. فأصبح كل ما يمنحه الإنسان الأشياء من أسماء إنما هي أدل الأدلة وأشهرها على أنه مخلوق سَمَّى مخلوقًا.

تصوَّر: لو افترضنا أننا سألنا نوحًا عليه السلام: كم بينك وبين أبي البشر الأول؟ لقال: عشرة آباء الثالث إدريس والأب الأول هو آدم أبي وأبو البشر أجمعين، فلو قلنا له: سَمِّهم لنا؛ لقال: أنا نوح ابْن لَامَكَ بْنِ مَتُّوشَلَخَ بْنِ خَنُوخَ، وَهُوَ إِدْرِيسُ بْنُ يَرْدَ بْنِ مَهْلَائِيلَ بْنِ قَيْنَنَ بْنِ أَنُوشَ بْنِ شِيثَ بْنِ آدَمَ أَبِي الْبَشَرِ عليه السلام[(١)].. فلو قلنا له: فمَن سمَّاك: لقال: أبي، وكل واحد منَّا سمَّاه أبوه.. هذا هو المعتاد.. وهنا نقول: أليس هذا دليلًا على أن العبد مخلوق، وأن هذه هي سلسلة عبيد مخلوقين بعضهم يسمي بعضًا.. ألم ننتبه إلى ما ورد نصه في دعاء سيد الاستغفار -وإنه سيدها والله بحق- ففي ذلك الحديث العظيم الجمع ما بين العبودية والمخلوقية «**خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ**»[(٢)]، وأوله: «**اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي، لا إِلَهَ إِلَّا**

(١) البداية والنهاية (١/ ٢٣٧).

(٢) رواه البخاري (٦٣٢٣).

أَنْتَ»[(١)]، فهو سبحانه مِن عنده المنتهى، وإليه المنتهى، وتسلسل تسميات الآباء لأبنائهم تنتهي عند آدم عليه السلام، لأنه لا مخلوق قبله.. فحيث انتهت تسميات البشر بعضهم لبعض بلغنا النقطة الأولى في الذرية... وهي نقطة الابتداء ولا شيء بعد هذه السلسلة البشرية مطلقًا.. فالمخلوقون بعضهم يسمي بعضًا، والأول منهم لم يُسَمِّه إلا الله سبحانه الذي هؤلاء جميعًا خلقه.. وهذا من الفارق بين الخالق والمخلوق، أما أسماء الخالق سبحانه فجامعها كما في أول ذكر «بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ» هكذا بكل إطلاق، كما قال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣]، وقال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وهكذا فلقد أعلن الله عز وجل اسم آدم حين خلقه، وهذا بالإضافة إلى أنه تشريف، وتكريم لآدم عليه السلام وذريته، وإحقاق للحق، فإن هذا كذلك يعني: أنه لا يمكن أن يُسَمِّي المخلوق الأول إلا الذي خلقه، وذلك لأن الله هو مَن ابتدأه، كما قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾ [السجدة: ٧]، وقال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الروم: ١١]، فمَن ابتدأ الخلق البشري به إنما هو آدم عليه السلام، فكان الله مَن سمَّاه، ومَن كان بعده من الذرية فالأسماء البشرية مشاعة للجميع.. لأنهم جميعًا ممَّن ابتدأ الله خَلْقه، وابتدأ تسميته [آدم] عليه السلام، وهكذا جَمَعَها مَن آتاه الله جوامع الكلم في أعظم خطبة سَمِعَتْها الإنسانية وهي خطبة الوداع فقال صلى الله عليه وسلم: «**إِنَّ اللهَ عز وجل قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ[(٢)] الْجَاهِلِيَّةِ وَفَخْرَهَا**

---

(١) رواه البخاري (٦٣٢٣).

(٢) عُبِّيَّة الجاهلية، قال السندي: بضم عين مهملة، وكسر موحدة مشددة، وفتح ياء مثناة من تحت مشددة: الكِبر والنخوة.

بِالْآبَاءِ، مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ[١]، وَالنَّاسُ بَنُو آدَمَ، وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ، لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ فَخْرَهُمْ بِرِجَالٍ، أَوْ لَيَكُونُنَّ أَهْوَنَ عِنْدَ اللهِ مِنْ عِدَّتِهِمْ[٢] مِنَ الْجِعْلَانِ[٣] الَّتِي تَدْفَعُ بِأَنْفِهَا النَّتَنَ»[٤].

ولم يذكر الله ﷻ اسم [آدم] مرة ولا مرتين، بل ذكره في القرآن العزيز خمسًا وعشرين مرة... فهل من أحدٍ زعم أنه سمى أبانا الأول [آدم]، فإذا لم يوجد على الإطلاق، فالسؤال هو: إذا لم ينازع الله ﷻ أحدٌ اسم [آدم] عليه السلام، فكيف ينازعون الله خلقه العظيم ﷻ وخَلْق السماوات والأرض، كما قال سبحانه: ﴿مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا﴾ [الكهف: ٥١].

فالاسم لآدم عليه السلام هو الدليل القطعي الأول على أن الله تعالى خالق الإنسان وخالق الخلق أجمعين، وكل مَن سماه أهله أو الناس فإن هذا دليل قاطع على أنه مخلوق.. فبمجرد ذكرك لعبد اسمًا سماه به أهله أو وصفًا وصفه به قومه فهو مخلوق سماه المخلوقون مثله، وقد ختم على نفسه بأنه عبد، وأنه مخلوق، وأن الله سبحانه هو خالقه، لأنه واحد من السلسلة المنتهية بـ [آدم] عليه السلام،فالله خالقه

---

(١) مؤمن تقي، وفاجر شقي، أي: الناس رجلان: مؤمن تقي فهو الخيِّر الفاضل، وإن لم يكن حسيبًا في قومه. وفاجر شقي فهو الدنيء، وإن كان في أهله شريفًا رفيعًا.

(٢) من عدَّتِهم بتشديد الدال، أي: من عَدَدهم.

(٣) الجِعْلان: بكسر جيم وسكون عين، جمع جُعَل، بضمٍ ففتحٍ: دويبَّة سوداء تدير الأوساخ بأنفها.

(٤) رواه أحمد (٨٧٣٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (٥١٢٧)، وأبو داود (٥١١٦)، والترمذي (٣٩٥٦)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، وقال الأرنؤوط: إسناده حسن.

لأن الله هو مَن سَمَّى أباه الأول بـ[آدم] عليه السلام.. والله هو مَن عَلَّمه الأسماء كلها.. فسارت هذه المَلَكَة فطرة في الخلق، وسُنَّة محكمة مُتَّبعة، كما سارت الشاهد والفرقان على أن الإنسان مخلوق، وأن الإنسان مهما طغى واستكبر وتولى بركنه وادَّعى وأدبر، فبمجرد ذِكْر اسمه الذي سُمِّيَ به يعود إلى حقيقته ومخلوقيته، ولهذا ذكَّر موسى عليه السلام فرعون باسمه الذي يناديه به قومه؛ فقال له: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢]، وبهذه التسمية رَدَّ موسى عليه السلام فرعون إلى حقيقته... إلى عبدٍ ومخلوق ابن سلسلة من العبيد، وهذا وحده كافٍ لإبطال ادعائه أنه ربهم الأعلى وما إلى ذلك حين ناداه باسمه ﴿يَٰفِرْعَوْنُ﴾ وذلك في قوله سبحانه: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾، ولذا لم يَرُدَّ فرعون على موسى عليه السلام بعد هذه التسمية بكلمة، وما هي إلا أقصر حجة وأعظم حجة.. كلمة واحدة أبهتت أعظم طاغية، وهكذا فقد قال الله تعالى في إبطال تأليه المشركين للات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، فقال سبحانه: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٣]، ذلك أن الاسم كما ذكر إنما يُطلق على الفرد بعد ظهوره من بطن أمه... وأما مَن سمَّاه أبوه أو جده أو أحد من الناس قبل خلقه؛ كمَن يوصي بأن هذا الولد يُسمَّى باسم كذا فإنما المقصود إذا ولدته أمه فسمُّوه بهذا الاسم، وإلا فلا معنى للاسم بلا مُسَمَّى. بلا حقيقة.. فهل علمنا الآن بعض عظمة قوله: «**أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ**»؟

وقال سبحانه عن هود عليه السلام وهو قبل موسى عليه السلام مجيبًا قومه على تخويفهم

إياه بآلهتهم: ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾ [الأعراف: ٧١].

وبهذه الحجة القاهرة الفاصلة القاصمة قطع الله الشركاء ومشركيهم؛ فقال سبحانه: ﴿أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۗ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلۡ سَمُّوهُمۡۚ﴾ [الرعد: ٣٣]، فهذه وحدها حجة محيطة بكل مَن يعبد من دون الله أحدًا أيًّا كان، ومن كل جهة؛ فقوله سبحانه: ﴿قُلۡ سَمُّوهُمۡ﴾ إنما جعل المشركين بين واحدٍ من أمرين؛ فإنهم إن سموهم فما هم بآلهة، وإن لم يُسموهم فإنهم كذلك ليسوا بآلهة، والآلهة لم تسمِّ نفسها مثلما أنكم لم تسموا أنفسكم، فأنتم أضعف من أضعف شيء، فمَن مَنَحْتُم لهم العبودية فقد منحتم العبودية لمَن لم يخلق نفسه، بل مَن لم يستطع أن يمنح نفسه اسمًا، فلا قدرة لأنفسهم مطلقًا حتى على تسميتهم أنفسهم.

«**سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ**»: أرى أنه يجب أن نتوقف عند هذه الكلمة الجامعة من رسول الله ﷺ أكثر.. ونعود لذات النص العظيم، وسنجد - بإذن الله - في كل مرةٍ العجب العجاب؛ فبينما رسول رب العالمين ﷺ في كلمات جامعات، جمع كل أسماء الله الحسنى حسب عِلْمنا وحدودنا، فبعدما قال: «**أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ**» قال بعده مُفَصِّلًا ذلك تفصيلًا: «**سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ**»، فإن رسول الله ﷺ قبل ذلك وفي أول هذا الدعاء العظيم لم يذكر أي اسم للعبد، ولا اسم أبيه، ولا اسم أمه، ولا اسم أي مخلوق؛ فلم يقل في الدعاء مثلًا: [اللهم إني عبدك فلان بن فلان، أو نحو ذلك مما ورد مثله في بعض الأحاديث الأخرى]

«اللَّهُمَّ إِنَّ فُلَانَ بْنَ فُلَانٍ فِي ذِمَّتِكَ، فَقِهِ فِتْنَةَ الْقَبْرِ وَعَذَابِ النَّارِ، وَأَنْتَ أَهْلُ الْوَفَاءِ وَالْحَمْدِ، اللَّهُمَّ فَاغْفِرْ لَهُ وَارْحَمْهُ إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ»[(١)]...

وهذا يدل على عظمة أسماء الله الحسنى كما يدل على مخلوقية هذا الإنسان اسمًا ومُسَمًّى... ثم إنه مخلوق سوف يفنى ويذهب **فإن اسمه سوف يذهب وينسى**... ليبقى مَن سماه ﷻ وحده ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ﴾ [الحديد: ٣].

تدبَّر الأسماء في سورة الرحمن: لقد سمَّاها الله ﷻ [سورة الرحمن]، وهذا الاسم له خصوصية لا يعلمها إلا الله، وهو الاسم الذي قال الله فيه: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ [الإسراء: ١١٠]، وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا وَزَادَهُمۡ نُفُورٗا﴾ [الفرقان: ٦٠]، وفي هذه السورة قال ربنا سبحانه: ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ٢٦ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ٢٧ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٢٨ يَسۡـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ ٢٩ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [سورة الرحمن]، وختم السورة بقوله سبحانه: ﴿تَبَارَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨].

ولقد نظرت في كثرة أسماء المخلوقات وتنوعها في هذه السورة المباركة – سورة الرحمن – العظيمة فوجدتها ميدانًا عظيمًا للأسماء التي سماها الله سبحانه خلقه من كل الأصناف فعددتها واحدًا واحدًا فإذا بها نحو مائتي اسم، وكلها جاءت ما بين ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ [الرحمن: ١].. وبين آخر آية؛ وهي قوله سبحانه:

---

(١) رواه أبو داود (٣٢٠٢)، وابن حبان في صحيحه (٦٦٦٤)، وأحمد (١٦٠١٨)، وابن ماجه (١٤٩٩)، وقال الأرنؤوط: إسناده صحيح.

ثبى ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِى ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨]، فالآية الأولى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ [الرحمن: ١]، والآية الأخيرة ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِى ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨].

فابتدأت السورة بذكر الاسم ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، واختتمت بذكر الاسم ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِى ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾، وما بين اسم الله سبحانه واسم الله سبحانه حشد عظيم من أسماء خلقه.. كلها شاهدة بأسمائها على مخلوقيتها، شاهدة على عبوديتها، وشاهدة على عظمة خالقها.. هادية إلى ربها.. هي وأسماؤها شاهدة على أن أسماء الله الحسنى حق، وأن أسماء الله هي لله وحده لا شريك له..

﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا﴾: «**سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ**»: وللأسماء القصة العظمى في إظهار أهلية آدم عليه السلام ليتولى هو وحده الخلافة ولتبقى في ذريته الخلافة في هذه الأرض من دون الملائكة ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّىٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾ [سورة البقرة].. فبعدما خلقه الله تبارك وتعالى وصنَّفه بشرًا، وسمَّاه آدم، وأرادت الملائكة الخلافة لأنفسهم غيرة منهم أن يُعصى الله سبحانه وتعالى في الأرض، فهم لم يعلموا أن الله عَلِمَ أنهم لا يصلحون للخلافة، وعندما علموا أنهم لا يملكون معرفة أسماء كل شيء، بينما آدم عليه السلام عرف أسماء كل شيء وسَمَّاها لهم أقرَّت الملائكة بعدم أهليتهم القيام بالخلافة واعترفوا واعتذروا وقال سبحانه: ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾، ولك أن تتصور كيف

يمكن للإنسان أن يعيش على الأرض لو لم يعرف أسماء الأشياء... كيف يشتري، وكيف يبيع، وكيف ينادي على الأشياء، وكيف يُخبِر، وكيف يفهم ما يُخبَر به،كيف يفهم الخبر، كيف يتحدث، وبم يتحدث، وكم سيستغرق الوقت في أي خبر، كيف يطوِّر وكيف يستطيع تسخير كل شيء ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ١٣]، ومن ثَمَّ فقد علَّمه الله الأسماء، وعلمه كيف يسمي كل جديد عليه في الوجود، ولذا فقد سمَّى الإنسان كل شيء حتى النجوم في السماء، ولها منازلها، وسمى الأشياء في البراري والبحار، وسمى الجبال والمسالك والطرقات.. واهتدى بالنجوم وأسمائها ومنازلها، واهتدى في البر والبلاد والبحار، وربط أسماء ما في الأرض حسب مواقعها وأسمائها مع أسماء النجوم التي سماها، فيهتدي بما في الأرض وطرقها وبلدانها بأسماء النجوم التي في السماء، وكل ذلك بالأسماء، ورب العالمين يقول: ﴿وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦].

فإن الأساس في هذا أن الله سبحانه علَّم آدم عليه السلام الأسماء كلها، ثم أصبح بهذا يُسَمِّي بعضه بعضًا، ويسمي الأشياء الأخرى بأوصافها، أو أفعالها، أو أشكالها، أو ما يرجوه من ورائها، ونحو ذلك.. فما من شيء إلا وله اسمه.. فالاسم هو مدار الأشياء والعلاقات؛ إذ هو أول التعارف دائمًا وأبدًا، وقد علَّمنا ربنا ﷻ الابتداء بالتعارف بالأسماء؛ فقال سبحانه: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه: ١٤]، وقال لرسوله ﷺ: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١].

ويجمع أشياء لا تُعَدُّ ولا تُحصى باسم واحد.. فكم من عضو وعصب

ومفصل وجهاز في هذا الإنسان، وكم في كل جهاز من مكونات.. كل ذلك بأسمائها، ومن ثَمَّ لا بد من معرفة الترابط بين هذه الأسماء «**كَمَثَلِ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى عُضْوًا تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ جَسَدِهِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى**»[(١)].. ولأن كل ذلك يجتمع باسم واحد هو [الإنسان].. وبدل أن تقول كل شيء، يكفي أن تنادي عليه بـ أحمد، أو محمد، أو نحو ذلك.. وكم في هذا الموضع من الأرض من إنسان.. فلقد جمع الله الملايين المُمَلْيَنة باسم واحد؛ وهو الصين، أو أفريقيا، أو آسيا، أو جزيرة العرب.. فما أعظمها من آية! ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة:٣١]، وهكذا تجري تصنيفات الأشياء في الوجود من مخلوقات بخصائصها الخلقية وأنواعها وأصنافها.. وإنه لأمر لا يمكن وصف عظمته أبدًا، وكيف كان سيعيش الإنسان بدون هذه المَلَكة والعطاء؟!

سلطان أسماء الله الحسنى: «**أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ**»: قد قلت من قبل: إن فائدة كلمة «**هُوَ**» قبل كلمة «**لَكَ**» إنما تعني التعظيم الذي لا منتهى له في حق الله ﷻ، فيكفي كل اسم من أسمائك الحسنى أنه «**هُوَ لَكَ**».. فالقدسية لكل اسم من أسمائك الحسنى لأن القدسية كلها [هي لك]..

والتعظيم لكل اسم من أسمائك الحسنى لأن التعظيم كله [هو لك]..

والجلال لكل اسم من أسمائك الحسنى لأن الجلال كله [هو لك]..

والإكرام لكل اسم من أسمائك الحسنى لأن الإكرام كله [هو لك]..

والسلطان لكل اسم من أسمائك الحسنى لأن السلطان كله [هو لك]..

«**أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ**»: ليس شيء أعظم عند الله من السؤال بالله، أو

---

(١) رواه البخاري (٦٠١١) واللفظ له، ومسلم (٢٥٨٦).

السؤال باسم الله ﷻ.. فالسلطان لأسماء الله الحسنى هو سلطان الله ﷻ، وليست مجرد أحرف معاذ الله..

فاسم الله يُسَبَّحُ له كما قال سبحانه: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ﴾ [سورة الأعلى]، فإن بسم الله تُحِلُّ الذبيحة؛ كما قال سبحانه: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَـٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ١١٨]، وترك ذكر اسم الله على البهيمة عند ذبحها عمدًا يُحَرِّم لحمها؛ كما قال سبحانه: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١]، واجتماع هذه الأمم للحج كل عام وذبحها بهيمة الأنعام هناك فإنما هو لذكر اسم الله، كما أنَّ الحجَّ كلَّه لإعلاء اسم الله، كما قال ﷻ: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ ۗ فَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ۝٣٤ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣٥ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَـٰهَا لَكُم مِّن شَعَـٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَـٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [سورة الحج]، وهكذا الجهاد، والصلاة، وكل شيء في دين الله تعالى، ولأسماء الله سلطان وأي سلطان على هذا الوجود؛ في درء شروره كما قال النبي ﷺ: «**مَا مِنْ عَبْدٍ يَقُولُ فِي صَبَاحِ كُلِّ يَوْمٍ وَمَسَاءِ كُلِّ لَيْلَةٍ: بِسْمِ اللهِ الَّذِي لَا يَضُرُّ مَعَ اسْمِهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فَيَضُرَّهُ شَيْءٌ**»[(١)]،

(١) رواه الترمذي (٣٣٨٨)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ، وأبو داود (٥٠٨٨)،=

وقال: «مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا، ثُمَّ قَالَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ»(١).

نعم؛ فإن لأسماء الله الحسنى سلطانًا - كما ذكرنا - لذا ندعو بها، ونستغيث بها، ونستعيذ بها، ونسبح بها ولها.. لذا فقد ذمَّ الله ﷻ الآلهة التي عظَّموها بأسمائها بأن أسماءها لا سلطان لها، فليس أمرُ أسماءِ اللهِ الحسنى مجردَ أمرِ معتقَدٍ نظريٍّ، بل هو الدليل القاطع على أنه هو الأول والآخِر، وأنه الله لا إله إلا هو، وأنه على كل شيء قدير، وإنما هو قيام الحق في هذه الأرض كلها، وذهابه فساد الأرض، كما قال رب العالمين سبحانه: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]، فالمساجد نفسها إذا لم يُذكر فيها اسم الله كثيرًا لم يكن لقيامها أهمية، ولهذا بَيَّنَ الله تعالى أن ثمار نظام المدافعة في الأرض بقاء المساجد التي يذكر فيها اسم الله كثيرًا ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

كم عِظَمُ حرفِ «أَوْ» بين أسماء الله الحسنى؟

«سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوِ

=وابن ماجه (٣٨٦٩)، وأحمد (٤٧٤)، وابن حبان في صحيحه (٥٠٢)، والحاكم (١٩١٢)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ، وقال الحافظ ابن حجر في نتائج الأفكار (٢/ ٣٦٧): هذا حديث حسن صحيح، وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح، وقال الأرنؤوط: إسناده حسن، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٤٢٦).

(١) رواه مسلم (٢٧٠٨).

اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ»: حرف «أَوْ» هنا ليس المقصود منه التخيير معاذ الله، بل هو حرف عطف بمعنى الواو؛ فيكون المعنى بكل ذلك.. أي السؤال بكل أسماء الله الحسنى وأجمعها، ولهذا ورد في أولها «**أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ**»، فكل اسم من أسمائك الحسنى ربنا «**هُوَ لَكَ**»، وكل ما سيأتي بعده فإنه تفصيل في التعظيم الذي «**هُوَ لَكَ**»، واستغراق في التفصيل حتى المنتهى الذي «**هُوَ لَكَ**»، وجَمْعٌ لا يغادر اسمًا من أسماء الله الحسنى التي جمعها كلها «**هُوَ لَكَ**».. وتحديد لمصادر الأسماء الحسنى وأن لا مصدر لها إلا الله ﷻ، وإعلان أن لا أحد يحيط بها كلها علمًا، وإعلان بعد هذا كله أن أسماء الله لا يسميها إلا الله ﷻ.. وإن من الإلحاد في أسماء الله الحسنى والعدوان عليها أن تؤخذ من غير الوحي، بل هو المصدر الأوحد وهو صاحبها سبحانه ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [غافر: ٦٤]، أو ما أوحاه هو سبحانه لرسوله ﷺ، وأن لا تؤخذ بالاجتهاد، أو بالقياس، فالاجتهاد اجتهاد الناس، والقياس قياس الناس، وهذا من عمل المشركين مع آلهتهم، قال سبحانه: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا ١١٠ وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرٗا﴾ [سورة الإسراء].

حتى مَن يستندون إلى بعض النصوص في جواز الاستنباط من الأسماء الحسنى أسماء أخرى، أو صفات فهذا لا يصح أبدًا، والحجة عليهم في كل نصٍّ استندوا إليه، ومن أشهر النصوص التي يستندون إليها ما رواه أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ الرَّحِمَ شِجْنَةٌ مِنَ الرَّحْمَنِ، فَقَالَ اللهُ: مَنْ وَصَلَكِ وَصَلْتُهُ وَمَنْ**

قَطَعَكِ قَطَعْتُهُ»[(١)]، فإن الرسول ﷺ ما قال: قال الله تعالى: شققت لك وصفًا من اسمي، وإنما قال: اسمًا من اسمي، ثم إنه سبحانه ما قال: شققت لي اسمًا، وإنما قال: [لَهَا] وليس لي.. والله ﷻ يسمي ما يشاء كما يشاء، كما أنه يُقْسِم بما يشاء من خلقه، أما أسماء الله فهي لله كما في الحديث، وما من أحدٍ قال: إن [الرحم] من أسماء الله الحسنى!

هل يسمِّي أحدٌ مِنَ البَشَرِ رَبَّهُ ﷻ؟

«**أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ**»: ربما قال قائل: لماذا لم يذكر الله ﷻ سنة رسوله ﷺ كمصدر من مصادر أسماء الله الحسنى، كأن يقول: أو سمَّاك به رسولك ﷺ؟

والجواب - والله تعالى أعلم -: هو أن رسول الله ﷺ لا يسمي ربه ﷻ.. فأسماء الله ﷻ حصرٌ على رب العالمين، كما قال النبي ﷺ: «**بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ**»، ثم قال: «**سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ**»، وما قال: [سماك به رسولك]! ولو كان ثَمَّ شخص يُسَمِّي ربه سبحانه لكان هو رسول الله ﷺ حاشاه ﷺ وعياذًا بالله من ذلك.. حتى أسماؤه التي في القرآن العظيم، فإنما هي أسماؤه التي هي له أساسًا ﷻ، ولهذا قال ﷺ: «**أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ**»، ثم إنه لا يجتمع أن يُسمِّيه الله ﷻ أحمد ومحمد وهو يُسمِّي ربه سبحانه - تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا -، فلقد سمَّاه الله محمَّدًا قبل خلقه ﷺ بمئات السنين، كما علَّم الله ذلك عيسى عليه السلام، فأوصى بذلك قومه فقال: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦].

فالنص هنا على الاسم ﴿ٱسْمُهُۥٓ﴾ لها قيم عظيمة؛ هذه واحدة منها.. فإن فيها حماية لأسماء الله الحسنى من عدوان المعتدين عامة وعدوان النصارى على

(١) رواه البخاري (٥٩٨٨) واللفظ له، ومسلم (٢٥٥٤).

رب العالمين، كيف وقد نصَّ الله ﷻ في كتابه العزيز ست عشرة مرة على اسم عيسى ابن مريم فيقول: ﴿ٱسۡمُهُۥ﴾ إثباتًا لبشريته، ومخلوقيته، وعبوديته لله رب العالمين، ولهذا نصَّ عيسى ﷺ على الاسم؛ فقال: ﴿وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ﴾. فهو ليس تبليغًا لمعرفة الاسم العظيم ﴿أَحۡمَدُۖ﴾ فحسب، وإنما إبطالًا لكل دعوى عبودية لغير الله سبحانه ستظهر في قومه، وأن هذه دعوة المرسلين كافة ﷺ، وأن ابقوا على العهد بوحدانية الله ﷻ، وسبحان الله فلقد جاء التغيير في التوحيد سريعًا منهم، وأول التغيير تغيير عيسى ﷺ إلى ابنٍ للإله، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا، مع أن الله ﷻ ذكر عيسى باسمه قبل خلقه، وذلك عند البشرى به.. فكانت بشرى، وكانت حجة، فقال سبحانه: ﴿إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ وَجِيهٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾ [آل عمران: ٤٥]، وصدق الله ﷻ إذ قال: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ﴾ [مريم: ٣٤]، فاسمه ﴿عِيسَى﴾ هو أول قول الحق وحجة الحق.

ورب العالمين أجلُّ وأعظم من أن يسميه بشر أيًّا كان، ورسول الله ﷺ أكرم وأبعد ما يكون عن ذلك، وأبعد ما يكون من أن يقع فيما وقع فيه المشركون من تسميتهم آلهتهم؛ كما قال سبحانه: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٣]، وقال سبحانه: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢]، وقال سبحانه: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٥٩]، وقال سبحانه: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٨٠]، وقال سبحانه: ﴿سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ﴾ [الأنعام: ١٣٩].

وأمر آخر: هو أن رسول الله ﷺ أعظم مُعَرِّفٍ للعباد على أسماء الله، ودالٍّ عليها، فهو المبلِّغ عما أنزل في القرآن العظيم «**أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ**».. وهل أنزل الكتاب إلا عليه، وهو القائل عن سنته: «**أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ، وَمِثْلَهُ مَعَهُ**»(١).. ومع هذا فكل اسم من الأسماء الحسنى ورد في السُّنَّة فلا يعني هذا أبدًا أن رسول الله ﷺ هو مَن سمَّى ربه ﷻ فمعاذ الله من هذا، إنما هو من أسماء الله التي هي له ﷻ بلا ابتداء، كما قال: «**أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ**».

ثم إنه ﷺ له النصيب الأعظم من قوله في هذا الحديث الذي قال فيه ﷺ: «**أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ**»؛ ولذا فإن الله ﷻ يفتح على رسوله ﷺ يوم القيامة فتحًا عظيمًا من محامده، وإن أعظم ما يحمد به سبحانه على الإطلاق إنما هو أسماؤه الحسنى، يفتح عليه من محامده تلك ما لا يفتحه عليه قبل ذلك أبدًا، كما قال ﷺ: «**فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي فَيُؤْذَنُ لِي، وَيُلْهِمُنِي مَحَامِدَ أَحْمَدُهُ بِهَا لَا تَحْضُرُنِي الْآنَ، فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ، وَأَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، أُمَّتِي أُمَّتِي**»(٢).

وبهذا نعلم أن رسول الله ﷺ له في كل ما ذكر النصيب الأوفى بين العباد من العلم بأسماء ربه الحسنى سواء «**كُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ**»، وما عَلَّم سبحانه أحدًا من خلقه عن أسمائه الحسنى كما عَلَّمه هو ﷺ.

---

(١) رواه أبو داود (٤٦٠٤) واللفظ له، وأحمد (١٧١٧٤)، وصححه الألباني.

(٢) رواه البخاري (٧٥١٠).

ومن ثَمَّ فما عرفت أمة على الأرض من أسماء الله الحسنى ما عرفت أمة محمد ﷺ...

شرف الأسماء التسعة والتسعين:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ لِلهِ تَعَالَى تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مِائَةً غَيْرَ وَاحِدَةٍ، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ: هُوَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ، الْـمَلِكُ، الْقُدُّوسُ، السَّلَامُ، الْـمُؤْمِنُ، الْـمُهَيْمِنُ، الْعَزِيزُ، الْجَبَّارُ، الْـمُتَكَبِّرُ، الْخَالِقُ، الْبَارِئُ، الْـمُصَوِّرُ، الْغَفَّارُ، الْقَهَّارُ، الْوَهَّابُ، الرَّزَّاقُ، الْفَتَّاحُ، الْعَلِيمُ، الْقَابِضُ، الْبَاسِطُ، الْخَافِضُ، الرَّافِعُ، الْـمُعِزُّ، الْـمُذِلُّ، السَّمِيعُ، الْبَصِيرُ، الْحَكَمُ، الْعَدْلُ، اللَّطِيفُ، الْخَبِيرُ، الْحَلِيمُ، الْعَظِيمُ، الْغَفُورُ، الشَّكُورُ، الْعَلِيُّ، الْكَبِيرُ، الْحَفِيظُ، الْـمُقِيتُ، الْحَسِيبُ، الْجَلِيلُ، الْكَرِيمُ، الرَّقِيبُ، الْـمُجِيبُ، الْوَاسِعُ، الْحَكِيمُ، الْوَدُودُ، الْـمَجِيدُ، الْبَاعِثُ، الشَّهِيدُ، الْحَقُّ، الْوَكِيلُ، الْقَوِيُّ، الْـمَتِينُ، الْوَلِيُّ، الْحَمِيدُ، الْـمُحْصِي، الْـمُبْدِئُ، الْـمُعِيدُ، الْـمُحْيِي، الْـمُمِيتُ، الْحَيُّ، الْقَيُّومُ، الْوَاجِدُ، الْـمَاجِدُ، الْوَاحِدُ، الصَّمَدُ، الْقَادِرُ، الْـمُقْتَدِرُ، الْـمُقَدِّمُ، الْـمُؤَخِّرُ، الْأَوَّلُ، الْآخِرُ، الظَّاهِرُ، الْبَاطِنُ، الْوَالِي، الْـمُتَعَالِي، الْبَرُّ، التَّوَّابُ، الْـمُنْتَقِمُ، الْعَفُوُّ، الرَّؤُوفُ، مَالِكُ الْـمُلْكِ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، الْـمُقْسِطُ، الْجَامِعُ، الْغَنِيُّ، الْـمُغْنِي، الْـمَانِعُ، الضَّارُّ، النَّافِعُ، النُّورُ، الْهَادِي، الْبَدِيعُ، الْبَاقِي، الْوَارِثُ، الرَّشِيدُ، الصَّبُورُ**»[(١)].

---

(١) رواه الترمذي (٣٥٠٧)، وابن حبان في صحيحه (٥١١)، والحاكم (٤١)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ قَدْ خَرَّجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ بِأَسَانِيدَ صَحِيحَةٍ دُونَ ذِكْرِ الْأَسَامِيَ فِيهِ، والطبراني في الدعاء (١١١)، والبيهقي في السنن الكبرى (١٩٨١٧)، وابن ماجه (٣٨٦١)، وصححه=

هذه أول مرة أذكر في كتابٍ لي أسماء الله الحسنى التسعة والتسعين، وهذا والله شرف حُرِمْتُ منه طوال المرحلة الماضية... وما كان ذلك إلا لظَنٍّ غلب عليَّ أن الحديث لا يصح..

وشاء الله ﷻ أن يُشَرِّفني اليوم بهذا الشرف حتى وإن ذكر حديث الأسماء الحسنى آلاف من العلماء، فشرف أسماء الله الحسنى لا تسعه البحور، بل ولا الدنيا والآخرة..

ثم إن مَن عرف من قبل مَن ضَعَّف الحديث فليعرف اليوم أن أئمة عظماء قد صحَّحوا الحديث وحسَّنوه واحتجوا به.. وقبل هذا فإن أصل الحديث مجمع على صحته، فهو في الصحيحين[1]..

فيا رب اجعل ذكري لكل اسم من الأسماء الحسنى هنا شهادة قُرب إليك.. وزيادة معرفة بك ربي.. وزيادة يقين، وفقه، وحِكمة، وأن يكون كل اسم من أسمائك الحسنى حِرزًا لنا، ولأهلنا، ولمَن سبقونا بالإيمان في قبورنا من العذاب ومن فتنة القبر، وأن تجعل كل اسم من أسمائك زُلفى لنا لرفع درجاتنا.. وأن يكون كل اسم من أسمائك الحسنى شفيعًا لنا، وللمسلمين والمسلمات إلى آخر مسلم على هذه الأرض برحمتك يا أرحم الراحمين.

=البوصيري في مصباح الزجاجة (٤/ ١٤٨) رقم (١٣٦٣)، وحسَّنه ابن الشيخة المصري الحسيني في كتاب الثاني من شعار الأبرار في الأدعية والأذكار (٢/ ٣٢٨) رقم (٢١٧٢)، وحسنه النووي في الأذكار ص (١٠٠)، وصححه القرطبي في تفسيره (٧/ ٣٢٥)، وصححه الشوكاني في تحفة الذاكرين بعدة الحصن الحصين ص (٨٧).

(١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ لِلهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ**». رواه البخاري (٢٧٣٦)، ومسلم (٢٦٧٧).

الكلمة الخامسة

طلب الربيع وما بعد الربيع من الله ﷻ

«أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي»

لا ابتداء قبل القلب:

«**أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي**»: ألا - والله - ما أعظم القلب من الإنسان حتى يُقدِّمه النبي ﷺ على كل شيء فيه.. وما أعظم هذا القلب حتى يستغيث النبي ﷺ استغاثة لا نظير لها ويحشد لها من أسماء الله الحسنى حشدًا لم يسمع بمثله الخلق قط - حسب علمنا -، وليس هذا بغريب، فإن القلب هو **المَلِكُ الأول والأعظم** على جميع أعضاء الإنسان، وجميع الأعضاء له سامعة مطيعة... وهو مَن ركَّز النبي ﷺ عليه الدعاء أولًا، فقد قال فيه رسول الله ﷺ: «**أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ**»(١).

فالقلب هو العضو الذي يسري منه النور إلى أعضاء الإنسان إذا هو استنار... وإذا ما تأذى بأي أذى تأذت أعضاء الإنسان الأخرى، وإذا عمي القلب عميت الأبصار، وإن كانت العيون مفتحة ﴿**فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ**﴾ [الحج: ٤٦].. وإذا أغلق القلب أغلق السمع والبصر

(١) رواه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

ولم يدخلها شيء من الخير، وإن كانا يريان ويسمعان كل شيء، والله ﷻ يقول: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِۦٓ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام: ٤٦]، فكيف يكون الإغلاق للقلوب، وكيف يكون التفتح لها، يقول النبي ﷺ: «**تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ: عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا، فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالْآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا**(١) **كَالْكُوزِ، مُجَخِّيًا**(٢) **لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ**»(٣).

ولا يمكن حصر الآثار السلبية إذا فسد القلب أو فسد بعضه. إن أثرها على حياة الإنسان، وأعماله، وعلى صلاته، ومصيره، وعلى فهم الإنسان، وإدراكه ومداركه.. وأخيرًا على آخرته، ولما كان الأمر بهذه الخطورة فقد استعاذ النبي ﷺ من القلب الذي لا يخشع؛ فقال عَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرٍو رضي الله عنهما: «**كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ، وَمِنْ دُعَاءٍ لَا يُسْمَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ، وَمِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَؤُلَاءِ الْأَرْبَعِ**»(٤).. والاستعاذة بالله من قلب لا يخشع إنما لأنه هو مركز العلاقة بالله في هذا الإنسان.. وانقطاع الخشوع عن القلب ومن القلب انقطاع عن الله ﷻ، وإن كان صاحبه يصلي ويقرأ

---

(١) مُرْبَادًّا: شِدَّةُ الْبَيَاضِ فِي سَوَادٍ.

(٢) مُجَخِّيًا: مَنْكُوسًا.

(٣) رواه مسلم (١٤٤).

(٤) رواه الترمذي (٣٤٨٢)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ، وأحمد (١٩٤٠٢)، وأبو داود (١٥٤٨)، وقال الأرنؤوط: حديث صحيح لغيره.

القرآن.. إلا أنه بلا تيار، ولا قوة كالمصباح بلا إنارة، وكالمدفأة بلا تدفئة، وكالمحرك بلا حركة لأنه لا قوة، ولأنه كائن حي بلا روح، ولهذا حرص النبي ﷺ على تجلية القلب في كل وقت لإزالة كل ران، أو غَيْن[١]، أو تشويش، أو غبش، أو ما إلى ذلك ومن ثَمَّ فقد قال النبي ﷺ: «**إِنَّهُ لَيُغَانُ**[٢] **عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ**»[٣]، ذلك أن ضرره لا يقتصر عليه وحده.

هنا يتبين لنا عظمة تقديم ما سأله النبي ﷺ للقلب أولًا وقبل كل عضو آخر.. فكل شيء يأتي بعد القلب «**أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي**»، وكل ما جاء بعده تبع له من تفاصيل كما هو الأمر في الاستغاثة بأسماء الله الحسنى: «أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ»، فكل ما جاء بعدها تبع لها من تفاصيل، فما أعظم أمر القلب، وما أعظم أهميته، ومكانته، بل ومصيريته ومصير الإنسان كله حتى يكون سؤال النبي ﷺ هو: «**أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي**».. هل من شيء بعد القرآن.. هل من شيء مثل القرآن.. هل من مطلوب يساوي القرآن.. إنه كلام الله.. آيات الله.. حديث الله.. نور الله.. وينقطع الاقتداء هنا عن وصف الانبهار.. لهذا السؤال الذي ما سأل سائل مثله في ليل أو نهار.

ولو قيل - فرضًا -: إنَّ لكل عضو في الإنسان غذاء.. فمثلًا غذاء الدماغ الأساس إنما هو السكريات - وهي التي تُسَمَّى [الجلوكوز] - والأكسجين، وغذاء الكبد الدم الغني بالعناصر وخلو الجسم من السموم، وغذاء الرئتين الأكسجين والهواء النقي، وغذاء البصر الأكسجين والعناصر الغذائية الدقيقة

---

(١) الغَيْن: الغطاء، وكل حائل بينك وبين شيء.

(٢) يُغَانُ: يغطي.

(٣) رواه مسلم (٢٧٠٢).

مثل فيتامين (A).. فيحق لنا هنا أن نقول يقينًا: إن غذاء القلب إنما هو من القرآن، وبعد هذا فكل الأعضاء إنما تتغذَّى من القلب. أقول هذا لنتصوَّر بعض عظمة تخصيص النبي ﷺ سؤال الله ﷻ بأسماء الله الحسنى كلها ليجعل الله [القرآن ربيع قلوبنا]، فالله أكبر ولله الحمد.

ولقد جمع ربنا ﷻ أعظم جمع بين فقه القلب وفهم الأسماء الحسنى في سورة الأعراف؛ فقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سورة الأعراف]، ففي هذه الآية جعل الله سبحانه ذهاب فقه القلب هو الأساس في حدوث كل خراب، وهو سبب ذهاب صاحب القلب الخرب إلى جهنم، فإن القائد السيئ لا يقود أتباعه إلا إلى النار.. ومن ثَمَّ فكل الأعضاء تتبع القلب؛ فالإبصار بالقلب، والسمع بالقلب، وذلك لقول الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، والسمع دون فقه القلب لا ينبغي ولا ينفع: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا ۚ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥].

الضابط من النشاط يكون القرآن [رَبِيعِ القَلْبِ]:

ليس ربيع سمعي، ولا ربيع بصري ونظري، ولا ربيع فكري، ولا ربيع عقلي، ولا ربيع علمي، ولا أي شيء آخر غير «**رَبِيعَ قَلْبِي**»؛ فإن القرآن إذا كان «**رَبِيعَ قَلْبِي**» كان ربيع كل ذلك وغير ذلك بغير استثناء.. ربيع كل كياني.. كل

مداركي.. ونورها، وحاميها، وجلاءها، وشفاءها، ومُذهب الضرر عنها، وكل عضوٍ يأخذ ما يناسبه من «**رَبِيعَ قَلْبِي**».

وإنه إذا نقص القرآن عن القلب ولم يكن ربيعه، وحاولوا تغذية القلب بأي غذاء بَدَل القرآن فلا بد أن يشط الإنسان كله عن الصراط المستقيم، لا بد أن يتضخم عنده القلب، وهو علامة ضعف خطير في القلب يحدث الضرر لعجزه عن أداء دوره ويكون على حساب الأعضاء الأخرى، وأوضح مثال على هذا الخوارج، وقول النبي ﷺ شاهد عليهم أعظم شهادة؛ قَالَ عَلِيٌّ رضي الله عنه – وهو أعلم الناس بالخوارج –: إِذَا حَدَّثْتُكُمْ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَلَأَنْ أَخِرَّ مِنَ السَّمَاءِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقُولَ عَلَيْهِ مَا لَمْ يَقُلْ، وَإِذَا حَدَّثْتُكُمْ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ فَإِنَّ الْحَرْبَ خَدْعَةٌ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**سَيَخْرُجُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ قَوْمٌ أَحْدَاثُ الْأَسْنَانِ، سُفَهَاءُ الْأَحْلَامِ، يَقُولُونَ مِنْ خَيْرِ قَوْلِ الْبَرِيَّةِ، يَقْرَؤُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ، فَاقْتُلُوهُمْ فَإِنَّ فِي قَتْلِهِمْ أَجْرًا لِمَنْ قَتَلَهُمْ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[(١)].

فهؤلاء الخوارج مع شدة أخذهم القرآن، وغلوهم بالقرآن، وقيامهم الليل بالقرآن.. لم يكن القرآن العظيم ربيع قلوبهم، ولو كان ربيع قلوبهم لكان ربيع حياتهم، ومَن كان القرآن ربيع قلبه أنَّى يستطيع قلبه أن يتركه، وكيف يكون القرآن ربيع قلوب الخوارج، وقلوبهم لا ترتجف لقتل مسلم بالباطل، بل ولا المسلمين أجمعين من سواهم.. فكم هو البَوْن مهولًا بين الصورة والحقيقة، وما أعظم وأدق العلة في ذلك، فقد قال النبي ﷺ فيهم: «**يَخْرُجُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ قَوْمٌ أَحْدَاثُ الْأَسْنَانِ، سُفَهَاءُ الْأَحْلَامِ، يَقُولُونَ مِنْ خَيْرِ قَوْلِ النَّاسِ، يَقْرَؤُونَ**

(١) رواه مسلم (١٠٦٦).

الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، فَمَنْ لَقِيَهُمْ فَلْيَقْتُلْهُمْ، فَإِنَّ قَتْلَهُمْ أَجْرٌ عِنْدَ اللهِ لِمَنْ قَتَلَهُمْ»[(١)]... لم ينزل أسفل الترقوة، ولم يتجاوز الحدود إلى القلب.

وما أعظم وصف النبي ﷺ لأخطر ما يصنع هؤلاء، ووصف اغترار الناس بشدتهم في تمسكهم، وإقبالهم العنيف، ثم اختفاءهم فجأة كأن لم يكونوا؛ فَعَنْ مِقْسَمٍ أَبِي الْقَاسِمِ مَوْلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ نَوْفَلٍ، قَالَ: خَرَجْتُ أَنَا وَتَلِيدُ بْنُ كِلَابٍ اللَّيْثِيُّ، حَتَّى أَتَيْنَا عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِي، وَهُوَ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ، مُعَلِّقًا نَعْلَيْهِ بِيَدِهِ، فَقُلْنَا لَهُ: هَلْ حَضَرْتَ رَسُولَ اللهِ ﷺ حِينَ يُكَلِّمُهُ التَّمِيمِيُّ يَوْمَ حُنَيْنٍ؟ قَالَ: نَعَمْ، أَقْبَلَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ، يُقَالُ لَهُ: ذُو الْخُوَيْصِرَةِ، فَوَقَفَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ يُعْطِي النَّاسَ، قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، قَدْ رَأَيْتَ مَا صَنَعْتَ فِي هَذَا الْيَوْمِ! فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَجَلْ، فَكَيْفَ رَأَيْتَ؟**» قَالَ: لَمْ أَرَكَ عَدَلْتَ! قَالَ: فَغَضِبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، ثُمَّ قَالَ: «**وَيْحَكَ، إِنْ لَمْ يَكُنِ الْعَدْلُ عِنْدِي فَعِنْدَ مَنْ يَكُونُ؟**» فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلَا نَقْتُلُهُ؟ قَالَ: «**لَا، دَعُوهُ، فَإِنَّهُ سَيَكُونُ لَهُ شِيعَةٌ يَتَعَمَّقُونَ فِي الدِّينِ، حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهُ، كَمَا يَخْرُجُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، يُنْظَرُ فِي النَّصْلِ، فَلَا يُوجَدُ شَيْءٌ، ثُمَّ فِي الْقِدْحِ فَلَا يُوجَدُ شَيْءٌ، ثُمَّ فِي الْفُوقِ، فَلَا يُوجَدُ شَيْءٌ، سَبَقَ الْفَرْثَ وَالدَّمَ**»[(٢)]، فمن شدة دخوله الدين وسرعة نفاذه منه تنظر وراءه فلا تجد شيئًا، كالسهم الخاطف يدخل في الصيد «الرَّمِيَّةِ»

---

(١) رواه ابن ماجه (١٦٨)، والترمذي (٢١٨٨)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

(٢) رواه أحمد (٧٠٣٨)، وقال الأرنؤوط: صحيح، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ٢٢٨) رقم (١٠٤٠٦): رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَالطَّبَرَانِيُّ بِاخْتِصَارٍ، وَرِجَالُ أَحْمَدَ ثِقَاتٌ.

ثم يخرج منه ولا ترى له أي أثر.. تقلب الصيد ولا تجد أثرًا للسهم فيه، ولا تجد في السهم أثرًا من دم أو فرث «**سَبَقَ الْفَرْثَ وَالدَّمَ**».

وكم يغتر الطيبون بأمثال هؤلاء الخوارج وذلك بتشديد فلان على نفسه في أخذ القرآن، وأخذ السُّنَّة.. فيختفي جيل من هؤلاء الذين شددوا على أنفسهم في حفظ الحديث حتى الإسناد، وظن الناس أن جيلًا قادمًا من العلماء على الأبواب.. وهم إنما يصنعون بهذه المنهجية الشديدة - في هذا الزمان - شبابًا يكرهون الدين ولا يحملون الدين ويبلغونه، ويبلغون آية منه لو حملوها.. وليس بعد كراهية الدين من قبح ثمره؛ فَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ، فَأَوْغِلْ فِيهِ بِرِفْقٍ، وَلَا تُبَغِّضْ إِلَى نَفْسِكَ عِبَادَةَ اللهِ، فَإِنَّ الْـمُنْبَتَّ لَا أَرْضًا قَطَعَ، وَلَا ظَهْرًا أَبْقَى**»(١).. **فإن العبرة إنما هي في الخلاصة**، فَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو ﷺ قَالَ: ذُكِرَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ رِجَالٌ يَجْتَهِدُونَ فِي الْعِبَادَةِ اجْتِهَادًا شَدِيدًا، فَقَالَ: «**تِلْكَ ضَرَاوَةُ الْإِسْلَامِ وَشِرَّتُهُ، وَلِكُلِّ ضَرَاوَةٍ شِرَّةٌ، وَلِكُلِّ شِرَّةٍ فَتْرَةٌ، فَمَنْ كَانَتْ فَتْرَتُهُ إِلَى اقْتِصَادٍ وَسُنَّةٍ فَلِأُمٍّ مَا هُوَ، وَمَنْ كَانَتْ فَتْرَتُهُ إِلَى الْـمَعَاصِي، فَذَلِكَ الْهَالِكُ**»(٢)، وكل هذا كان لإحلال شيء للقلب بديلًا عن القرآن، أو أمر عظموه على حساب القرآن.

فإن الشطط في العلاقة بالقرآن يحول دون أن يكون القرآن ربيع قلب ذاك المدعي اتِّباع القرآن وحده دون السُّنَّة؛ فَعَنِ الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرِبَ ﷺ قَالَ:

---

(١) رواه البيهقي في السنن الكبرى (٤٧٤٣) واللفظ له، وأحمد (١٣٠٥٢)، وقال الأرنؤوط: حسن بشواهده.

(٢) رواه أحمد (٦٥٣٩)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢/ ٢٥٩) رقم (٣٥٦٨): رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي الْكَبِيرِ وَأَحْمَدُ بِنَحْوِهِ، وَرِجَالُ أَحْمَدَ ثِقَاتٌ، وقال الأرنؤوط: صحيح لغيره.

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَلَا هَلْ عَسَى رَجُلٌ يَبْلُغُهُ الْحَدِيثُ عَنِّي وَهُوَ مُتَّكِئٌ عَلَى أَرِيكَتِهِ، فَيَقُولُ: بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابُ اللهِ، فَمَا وَجَدْنَا فِيهِ حَلَالًا اسْتَحْلَلْنَاهُ، وَمَا وَجَدْنَا فِيهِ حَرَامًا حَرَّمْنَاهُ، وَإِنَّ مَا حَرَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ كَمَا حَرَّمَ اللهُ»(١)، وفي رواية: «أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ، وَمِثْلَهُ مَعَهُ، أَلَا يُوشِكُ رَجُلٌ شَبْعَانُ عَلَى أَرِيكَتِهِ يَقُولُ عَلَيْكُمْ بِهَذَا الْقُرْآنِ فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَلَالٍ فَأَحِلُّوهُ، وَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ، أَلَا لَا يَحِلُّ لَكُمْ لَحْمُ الْحِمَارِ الْأَهْلِيِّ، وَلَا كُلُّ ذِي نَابٍ مِنَ السَّبُعِ، وَلَا لُقَطَةُ مُعَاهِدٍ، إِلَّا أَنْ يَسْتَغْنِيَ عَنْهَا صَاحِبُهَا، وَمَنْ نَزَلَ بِقَوْمٍ فَعَلَيْهِمْ أَنْ يَقْرُوهُ فَإِنْ لَمْ يَقْرُوهُ فَلَهُ أَنْ يُعْقِبَهُمْ بِمِثْلِ قِرَاهُ»(٢)، وفي رواية: «يُوشِكُ أَحَدُكُمْ أَنْ يُكَذِّبَنِي وَهُوَ مُتَّكِئٌ عَلَى أَرِيكَتِهِ يُحَدَّثُ بِحَدِيثِي، فَيَقُولُ: بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابُ اللهِ، فَمَا وَجَدْنَا فِيهِ مِنْ حَلَالٍ اسْتَحْلَلْنَاهُ، وَمَا وَجَدْنَا فِيهِ مِنْ حَرَامٍ حَرَّمْنَاهُ، أَلَا وَإِنَّ مَا حَرَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِثْلُ مَا حَرَّمَ اللهُ»(٣).

فهذا من الشطط، وذلك لمخالفتهم هديًا غير هدي رسول الله ﷺ تعاملوا معه كمنهجٍ مع القرآن، بل هذا من العدوان على القرآن.. فلا والله لا يقبله الله وإن تَسَمَّوا بـ[القرآنيين]، أو نحوهم، وهم والخوارج سواء في أصل الشطط؛ فكلاهما

---

(١) رواه الترمذي (٢٦٦٤)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ، غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ، وأحمد (١٧١٩٤)، والحاكم (٣٧١)، وأبو داود (٤٦٠٤)، وابن ماجه (١٢)، وقال الأرنؤوط: حديث صحيح، وقال الألباني في صحيح الجامع (٢٦٥٧): صحيح.

(٢) رواه أبو داود (٤٦٠٤)، وأحمد (١٧١٧٤)، والترمذي (٢٦٦٤) مختصرًا، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ، غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ، وابن حبان في صحيحه (١٨٢٩)، والحاكم (٣٧١)، وقال الأرنؤوط: إسناده صحيح، وصححه الألباني.

(٣) رواه أحمد (١٧١٩٤)، وقال الأرنؤوط: حديث صحيح.

«**يَقْرَؤُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ**»، فقلوبهم لم تتغذَّ بالقرآن، كما هو الشطط في التهاون في أخذ القرآن.. دون الاهتمام بأحكام تلاوته بلا لحن حسب المستطاع...

وهكذا هو الشطط بمحاولة إقامته كإقامة السهم إلى بلوغ حدِّ الغُلُوِّ.. عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ ﷺ قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمًا وَنَحْنُ نَقْتَرِئُ، فَقَالَ: «**الْحَمْدُ لِلهِ كِتَابُ اللهِ وَاحِدٌ، وَفِيكُمُ الْأَحْمَرُ وَفِيكُمُ الْأَبْيَضُ وَفِيكُمُ الْأَسْوَدُ، اقْرَؤُوهُ قَبْلَ أَنْ يَقْرَأَهُ أَقْوَامٌ يُقِيمُونَهُ كَمَا يُقَوَّمُ السَّهْمُ يُتَعَجَّلُ أَجْرُهُ وَلَا يُتَأَجَّلُهُ**»[(١)]، وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ﷺ قَالَ: دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَسْجِدَ، فَإِذَا فِيهِ قَوْمٌ يَقْرَؤُونَ الْقُرْآنَ، قَالَ: «**اقْرَؤُوا الْقُرْآنَ، وَابْتَغُوا بِهِ اللهَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ قَوْمٌ يُقِيمُونَهُ إِقَامَةَ الْقِدْحِ، يَتَعَجَّلُونَهُ وَلَا يَتَأَجَّلُونَهُ**»[(٢)]، فكتاب الله يجمع ولا يفرِّق، وكتاب الله يوحِّد الأشتات، ولا يفرِّق الأحباب والأصحاب، كيف وإن لم يكن اجتماع على غير كتاب الله ﷻ فلا اعتبار له إلا أن يمنَّ الله ويعيده اجتماعًا على كتاب الله.

وهؤلاء أناس ذمَّهم رسول الله ﷺ أخذوا كتاب الله ويتكلَّفون الاجتماع عليه، ويتشدَّدون ويشدِّدون على الناس في ذلك، ويكون على مقياس معين من قراءة القرآن هو المقبول في هذا الجمع... وهذا هو المقياس الذي تُقْبل به صلاته، لم يراعوا الاختلافات الموروثة بين الناس، اختلافات الألسن واللغات، واختلاف مخارج الحروف عند الناس، بل ولا يراعون الاختلافات الخِلْقية في النطق، وما إلى ذلك.

---

(١) رواه أبو داود (٨٣١)، وقال الألباني: حسن صحيح.

(٢) رواه أحمد (١٤٨٥٥)، وقال الأرنؤوط: حديث صحيح.

ولهذا فإن النبي ﷺ أعطانا هنا ضوابط كثيرة أذكر منها أمرين عظيمين في حديث سهل بن سعد ﷺ؛ **الضابط الأول**: وجوب الاجتماع على هذا حتى وإن اختلفت الألوان، وما اختلاف الألوان إلا عَيِّنَة من اختلاف القارات، واختلاف اللغات، واختلاف مخارج الحروف.. فالأمر هنا متعلق بالقرآن العظيم، ومتعلق بقراءته تحديدًا، وإذا لم نجتمع على القرآن فعلى أي شيء نجتمع، وإذا لم يجمعنا القرآن فأي شيء يجمعنا؟!

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ، وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ، وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ**»(١).

وَعَنْ جُنْدَبِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**اقْرَؤُوا الْقُرْآنَ مَا ائْتَلَفَتْ عَلَيْهِ قُلُوبُكُمْ، فَإِذَا اخْتَلَفْتُمْ فَقُومُوا عَنْهُ**»(٢).

وَعَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَطَبَ فَقَالَ: «**الْجَمَاعَةُ رَحْمَةٌ، وَالْفُرْقَةُ عَذَابٌ**»(٣).

---

(١) رواه مسلم (٢٦٩٩).

(٢) رواه البخاري (٧٣٦٥)، ومسلم (٢٦٦٧).

(٣) رواه ابن أبي عاصم في السُّنَّة (١/ ٤٤) رقم (٩٣)، وقال الألباني في صحيح الجامع (٣١٠٩): حسن.

عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، قَالَ: لَقَدْ جَلَسْتُ أَنَا وَأَخِي مَجْلِسًا مَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهِ حُمْرَ النَّعَمِ، أَقْبَلْتُ أَنَا وَأَخِي، وَإِذَا مَشْيَخَةٌ مِنْ صَحَابَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ جُلُوسٌ عِنْدَ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِهِ، فَكَرِهْنَا أَنْ نُفَرِّقَ بَيْنَهُمْ، فَجَلَسْنَا حَجْرَةً(١)، إِذْ ذَكَرُوا آيَةً مِنَ الْقُرْآنِ، فَتَمَارَوْا فِيهَا، حَتَّى ارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُمْ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُغْضَبًا، قَدِ احْمَرَّ وَجْهُهُ، يَرْمِيهِمْ بِالتُّرَابِ، وَيَقُولُ: «**مَهْلًا يَا قَوْمِ، بِهَذَا أُهْلِكَتِ الْأُمَمُ مِنْ قَبْلِكُمْ، بِاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، وَضَرْبِهِمُ الْكُتُبَ بَعْضَهَا بِبَعْضٍ، إِنَّ الْقُرْآنَ لَمْ يَنْزِلْ يُكَذِّبُ بَعْضُهُ بَعْضًا، بَلْ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا، فَمَا عَرَفْتُمْ مِنْهُ، فَاعْمَلُوا بِهِ، وَمَا جَهِلْتُمْ مِنْهُ، فَرُدُّوهُ إِلَى عَالِمِهِ**»(٢).

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو ﷺ قَالَ: «هَجَّرْتُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ يَوْمًا قَالَ: فَسَمِعَ أَصْوَاتَ رَجُلَيْنِ اخْتَلَفَا فِي آيَةٍ، فَخَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يُعْرَفُ فِي وَجْهِهِ الْغَضَبُ، فَقَالَ: إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِاخْتِلَافِهِمْ فِي الْكِتَابِ»(٣).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**نَزَلَ الْقُرْآنُ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ، الْمِرَاءُ فِي الْقُرْآنِ كُفْرٌ - ثَلَاثَ مَرَّاتٍ - فَمَا عَرَفْتُمْ فَاعْمَلُوا بِهِ، وَمَا جَهِلْتُمْ مِنْهُ فَرُدُّوهُ إِلَى عَالِمِهِ**»(٤).

الضابط الثاني: هو الصبر عليهم ومواصلة القراءة، وعدم التعجل، ولهذا فقد قال رسول الله ﷺ: بعدما بيَّن الاختلافات: «**الْحَمْدُ لِلهِ كِتَابُ اللهِ وَاحِدٌ، وَفِيكُمُ**

---

(١) حجرة، أي: ناحية.

(٢) رواه أحمد (٦٧٠٢)، وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح، وقال الأرنؤوط: صحيح.

(٣) رواه مسلم (٢٦٦٦).

(٤) رواه أحمد (٧٩٨٩)، وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح، وقال الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

الْأَحْمَرُ وَفِيكُمُ الْأَبْيَضُ وَفِيكُمُ الْأَسْوَدُ، اقْرَؤُوهُ قَبْلَ أَنْ يَقْرَأَهُ أَقْوَامٌ يُقِيمُونَهُ كَمَا يُقَوَّمُ السَّهْمُ يُتَعَجَّلُ أَجْرُهُ وَلَا يُتَأَجَّلُهُ»[١]، فإن الذي يريد إنتاجًا سريعًا متميزًا عند الناس، ليباهي به الناس، ويستعرضه في برامج إعلامية خاصة من تدقيق شديد في المقامات وما إلى ذلك، فإنه في خطر عظيم لقوله ﷺ: «**اقْرَؤُوا الْقُرْآنَ، وَابْتَغُوا بِهِ اللهَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ قَوْمٌ يُقِيمُونَهُ إِقَامَةَ الْقِدْحِ، يَتَعَجَّلُونَهُ وَلَا يَتَأَجَّلُونَهُ**»[٢]، وهذا يقتضي الصبر على هذه الاختلافات والألوان، واللغات في الإسلام، أو التائبين، أو المتعلمين، فإن الآخرين لا طاقة لهم بهذا، أفيتركون القرآن، أم يتركون الصلاة؟ أم يقدِّمون في صلاتهم مَن قال فيهم رسول الله ﷺ: «**يَتَعَجَّلُونَهُ وَلَا يَتَأَجَّلُونَهُ**»، وَعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ﷺ قَالَ: «أَلَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا كُنَّا نَعْرِفُكُمْ إِذْ فِينَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَإِذْ يَنْزِلُ الْوَحْيُ، وَإِذْ يَنْبَئُنَا مِنْ أَخْبَارِكُمْ، أَلَا وَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدِ انْطَلَقَ وَرُفِعَ الْوَحْيُ، وَإِنَّمَا نَعْرِفُكُمْ بِمَا أَقُولُ لَكُمْ، أَلَا وَمَنْ يُظْهِرُ مِنْكُمْ خَيْرًا ظَنَنَّا بِهِ خَيْرًا وَأَحْبَبْنَاهُ عَلَيْهِ، وَمَنْ يُظْهِرُ مِنْكُمْ شَرًّا ظَنَنَّا بِهِ شَرًّا وَأَبْغَضْنَاهُ عَلَيْهِ، سَرَائِرُكُمْ فِيمَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ رَبِّكُمْ، أَلَا وَقَدْ أَتَى عَلَيَّ زَمَانٌ وَأَنَا أَحْسَبُ مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ يُرِيدُ بِهِ اللهَ تَعَالَى وَمَا عِنْدَهُ، وَلَقَدْ خُيِّلَ إِلَيَّ بِآخِرَةٍ أَنَّ قَوْمًا يَقْرَؤُونَهُ يُرِيدُونَ مَا عِنْدَ النَّاسِ، أَلَا فَأَرِيدُوا مَا عِنْدَ اللهِ بِقِرَاءَتِكُمْ وَبِعَمَلِكُمْ، أَلَا وَإِنِّي وَاللهِ مَا أَبْعَثُ عُمَّالِي لِيَضْرِبُوا أَبْشَارَكُمْ وَيَأْخُذُوا أَمْوَالَكُمْ، وَلَكِنِّي أَبْعَثُهُمْ لِيُعَلِّمُوكُمْ دِينَكُمْ وَسُنَنَكُمْ، وَيَعْدِلُوا بَيْنَكُمْ وَيَقْسِمُوا فِيكُمْ فَيْئَكُمْ، أَلَا مَنْ فُعِلَ بِهِ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ فَلْيَرْفَعْهُ إِلَيَّ، وَالَّذِي نَفْسُ عُمَرَ بِيَدِهِ لَأُقِصَّنَّهُ مِنْهُ»، فَوَثَبَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ ﷺ،

---

(١) رواه أبو داود (٨٣١)، وابن حبان في صحيحه (٦٧٢٥)، وقال الأرنؤوط: حديث صحيح، وقال الألباني: حسن صحيح.

(٢) رواه أحمد (١٤٨٥٥)، وقال الأرنؤوط: حديث صحيح.

فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْـمُؤْمِنِينَ أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْـمُسْلِمِينَ كَانَ عَلَى رَعِيَّةٍ، فَأَدَّبَ بَعْضَ رَعِيَّتِهِ إِنَّكَ لَـمُقِصُّهُ مِنْهُ، قَالَ: «وَمَا لِي لَا أَقُصُّهُ وَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُصُّ مِنْ نَفْسِهِ، أَلَا لَا تَضْرِبُوهُمْ فَتُذِلُّوهُمْ، وَلَا تَمْنَعُوهُمْ حَقَّهُمْ فَتُكَفِّرُوهُمْ، وَلَا تُجْبِرُوهُمْ فَتَفْتِنُوهُمْ، وَلَا تُنْزِلُوهُمُ الْغِيَاضَ فَتُضَيِّعُوهُمْ»[(١)].

ربيع كل شيء لأنه من [رَبِيعِ القَلْبِ]:

مَن كان القرآن ربيع قلبه كان القرآن ربيع بيته، ونور بيته، وجلاء أحزان بيته، وذهاب هموم بيته، فعن ابن عباس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ الَّذِي لَيْسَ فِي جَوْفِهِ شَيْءٌ مِنَ الْقُرْآنِ كَالْبَيْتِ الْخَرِبِ**»[(٢)]، بل ويكون القرآن سعة بيته، وربما تجد بيته غرفة أو غرفتين، أو خيمة أو خيمتين، أطيب وأوسع عند أصحابها من قصرٍ واسع كبير قد ضاق بهم ذرعًا، بل ضاقت عليهم الأرض بما رحبت؛ عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: «**إِنَّ أَصْغَرَ الْبُيُوتِ بَيْتٌ لَيْسَ فِيهِ مِنْ كِتَابِ اللهِ شَيْءٌ، فَاقْرَؤُوا الْقُرْآنَ، فَإِنَّكُمْ تُؤْجَرُونَ عَلَيْهِ بِكُلِّ حَرْفٍ عَشْرَ حَسَنَاتٍ، أَمَا إِنِّي لَا أَقُولُ: الم، وَلَكِنِّي أَقُولُ: أَلِفٌ، وَلَامٌ، وَمِيمٌ**»[(٣)].

الضرب على القرآن في هذا الزمان ليس من [رَبِيعِ القَلْبِ]:

لا أحسب الشيخ معلم القرآن العنيف بضرب مَن يُعَلِّمهم القرآن أن القرآن

---

(١) رواه الحاكم (٨٣٥٦)، وقال: حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ، وَلَمْ يُخْرِجَاهُ، ووافقه الذهبي.

(٢) رواه الترمذي (٢٩١٣)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، والحاكم (٢٠٣٧)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ.

(٣) رواه الحاكم (٢٠٨٠)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ.

ربيع قلبه.. فإنه لا يجتمع الربيع والخريف في يوم واحد أو فصل واحد.. فالربيع هو الربيع جمالًا، ودلالًا، وراحة، ولذة، وسعادة، وهناءً.. فإن من المسلَّمات التربوية أن الضرب المبرِّح للصغير يعلمه الكذب، لأنه يجد السلامة من الضرب بالكذب، ويُعَلِّم الطالب الكذب واصطناع الأعذار لتقصيره في حفظه، والخوف هنا هو أن هذا يُطير محبة حفظ القرآن من القلب! نعم؛ كثيرون هم الذين ضُربوا وحفظوا.. وهؤلاء ثبَّتهم الله تعالى، ثم خوفٌ آخر يثبتهم كارهين وهو ما يعقب ضرب المُحفِّظ من ضرب الأهل الذي ينتظرهم، وهو أشد من ضرب الشيخ في أكثر الأحيان، ثم ما يعقبه من مقاطعة الوالدين وما إلى ذلك.. فماذا يصنع الصغير إلا أن يتأقلم مع واقعٍ موحّد عليه كما هو يفهم في مجتمعاتٍ كان الضرب فيها عُرفًا.. أما اليوم فالكل يغري ويغرر ويدعو للفرح والسرور والأُنس... وأنا وأنت نضرب، فإلى مَن يلجأ هؤلاء الصغار إلا إلى المضلين؟!

ثم إن الضرب المبرح يطبع حافظ القرآن - إن حفظ - بطابع الخوف والجبن والذلة، وقد مرَّ معنا قبل قليل قول عمر ﷺ: «أَلَا لَا تَضْرِبُوهُمْ فَتُذِلُّوهُمْ»، ولهذا ينشأ جيل هؤلاء على ضد أخلاق القرآن، على الضد من أن يكون القرآن ربيع قلوبهم.. على الضد من أن يكونوا ربانيين، وسرعان ما تظهر الخسائر التربوية فينسلخ الكثير منهم مما أخذ من القرآن إلى النقيض - والعياذ بالله -، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٤].

وعادةُ مَن تَعَوَّدَ أن يُضْرَب بإذلالٍ وشدة على حفظ القرآن أن يَضْرِبَ كما ضُرب، لأنه ستمر فيه فترات لا يطيق الصبر فيضرب، وإذا قلت له: لِمَ تضرب؟ أجابك بقوله: لولا الضرب ما حفظنا! وأنا أعرف مَن كان يكوي ولده على الحفظ.. وهذا الطالب يقول: لولا الكي ما حفظنا! أقول: يا ليتك ما حفظت القرآن.. أما وقد حفظت فاحمد الله.. وكفاك رادعًا عن ذلك أن تستحضر مشاعرك وأنت الصغير وأنت تُكوى فتشتم رائحة شواء لحمك الطري، وتب إلى الله، فإنك وأمثالك بالضرب لن تقوى على حمل القول الثقيل ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥]، وأنت وأمثالك سبب لتشويه الإسلام، وسبب لكراهية القرآن، وهذا وأمثاله سرعان ما يكتمون آيات الله، وسرعان ما يَجْرون وراء غير القرآن..! وإذا كنا نريد تعليم القرآن فَلِمَ نجعل الضرب منهجًا ملازمًا.. ولماذا يتعدَّى الضرب إلى التقبيح على الوجه، ولماذا يلازمه التحطيم النفسي بالإهانة والتوبيخ، ولماذا يدفع الولد إلى العقوق دفعًا، ولماذا يُعان دعاة السوء من نفس البيئة على الولد، ولماذا نستقي شهادتنا عادة ممَّن حفظوا؛ أولا تذكروا مَن فرَّوا من الحفظ فرارًا؛ فكم هم نسبة الحافظين بالنسبة للآخرين؟! ثم إن هذا القرآن للعالم أجمع، فهل يستطيع هؤلاء المُحَفِّظون أن يسيروا على هذا النهج في المجتمعات الأجنبية الأوربية.. وهل يستطيعون أن يضربوا ابنًا على القرآن من أسرة أوربية في مدرسة غربية، أو مسجد في دولة غربية! وهل يستطيعون الضرب في مجتمعات تقيم العقوبة على الضرب؟! علمًا بأنه أكثر ما كان يحض عليه النبي ﷺ هو تعليم وتعلم القرآن ويقول للناس: «**خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ**»[(١)]، وكذلك حفظ القرآن، وأكثر ما كانت المساجد والبيوت

(١) رواه البخاري (٥٠٢٧).

به عامرة هو القرآن، فالقرآن أوفق ما يكون معه من الأساليب هو اللين، وأعظم ما يستحقه طلابه هو الرفق، وهذا الخلق هو أعظم ثمراته على صاحبه وحامله كما نشاهد في هذا الزمان على أهله الحقيقيين، وهكذا هي سلالات الحَفَظَة الربانيين على مدى العصور، وهذا لا يتعارض أبدًا مع الجدية في التعليم والتعلُّم، والحمد لله رب العالمين، وقد قال الله لسيد الحافظين القرآن: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، فكيف بضرب الصغار ضربًا مبرحًا وأكثره يأخذ طابع الغلظة، والقسوة، والفظاظة، عَنْ إِيَاسِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي ذُبَابٍ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَا تَضْرِبُنَّ إِمَاءَ اللهِ**»، فَجَاءَ عُمَرُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، قَدْ ذَئِرَ[1] النِّسَاءُ عَلَى أَزْوَاجِهِنَّ، فَأْمُرْ بِضَرْبِهِنَّ، فَضُرِبْنَ، فَطَافَ بِآلِ مُحَمَّدٍ ﷺ طَائِفُ نِسَاءٍ كَثِيرٍ، فَلَمَّا أَصْبَحَ، قَالَ: «لَقَدْ طَافَ اللَّيْلَةَ بِآلِ مُحَمَّدٍ سَبْعُونَ امْرَأَةً، كُلُّ امْرَأَةٍ تَشْتَكِي زَوْجَهَا، فَلَا تَجِدُونَ أُولَئِكَ خِيَارَكُمْ»[2]، مع أن الله ﷻ قد قال في كتابه العزيز: ﴿وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٤]..

---

(١) ذئر النساء: أي نشزن واجترأن.

(٢) رواه ابن ماجه (١٩٨٥)، وأبو داود (٢١٤٦)، وقال النووي في رياض الصالحين رقم (٢٧٩): رواه أبو داود بإسناد صحيح، وقال الحافظ ابن حجر في فتح الباري (٩/ ٣٠٣): صححه ابن حبان، والحاكم، وقال الأرنؤوط: إسناده صحيح.

صاحب الحظوة من الربيع

من حامل الربيع إلى الناس:

نعم إن الله وحده هو مَن يجعل القرآن ربيع القلب.. هو مَن يملك ذلك، لأنه هو سبحانه مَن يملك القلوب، وهو وحده سبحانه مَن يملك هداية القلوب ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ [البقرة: ٢٧٢]... وهكذا تعهَّد الله بحفظ القرآن؛ ألم يقل الله ﷻ: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]..؟! أليس في هذه الآية التكفُّل من رب العالمين بحفظ القرآن العظيم؟! فمَن ذا الذي من عباد الله سوف يسوقه الله سبحانه إلى عبدٍ من عباده أو برعم من براعم هذه الأمة، أو شبابها، أو شيبها... من رجالها، أو نسائها فيجعله داعيَ اللهِ لحفظ كتابه.. ويجعله سبحانه هو مقصوده بإنفاذ وعده بتحفيظ كتابه.. ويجعله مناط هذا الشرف العظيم.. وهكذا هي الحظوة فيمَن يجعل الله به القرآن ربيع القلوب... هو مَن حباه الله بهذا المقام الذي لا منتهى لعظمته وخصوصيته، وهو بلوغ القلوب فتتحوَّل على يديه هذا التحوُّل الأعظم، حتى يصبح القرآن ربيع قلبي وقلبك على يديه، وعندها يتبيَّن لنا أن هذا هو مَن أوكل الله له هذا الأمر العزيز للكتاب العزيز.. الأمر الكريم للقرآن الكريم.. الأمر العلي الحكيم للقرآن العلي الحكيم، الرجل الذي به أحق الله الحق في وعده، وكل كلمةٍ من هذه الكلمات تثقل بها الأرض والسماوات وأكثر والله، فليهنأ أهل الحفظ

والتحفيظ، والمُحفِّظون، والحافظون بأنهم هم المقصودون، وليظفروا بهذا التشريف وليكملوا التفويض من رب العالمين بكتابه الكريم، وهو أعظم عظيم عند رب العالمين.. إذ هو كلامه الكريم حين يتحوَّل عند المسلم إلى «رَبِيعَ قَلْبِي»، حتى يتحوَّل القرآن على أيديهم ربيع قلوب الآخرين.

لعلنا الآن فهمنا كيف يجعلُ اللهُ ﷻ القرآنَ ربيعَ قلوبِ العباد من خلال العباد المصطفين الأخيار... فهؤلاء هم جنده الذين قد وهبهم الله من فضله ونوره وهداه ما يخترقون به القلوب.. فهو سبحانه مَن يلهم القلوب أن اقبلوهم، ويقذف في كلماتهم وهديهم إصغاء القلوب لهم، وسَيْرَها راضية مرضية على خطاهم.. هم مَن ولَّاهم الله هذا المقام السامي؛ فبهم يجعل الله ما له وحده لهم، وبهم يجعل الله القرآن ربيع قلوب العباد، ونور صدورهم، وجلاء أحزانهم.. وبهم يؤلِّف الله ﷻ بين كلامه الكريم وبين قلوب عبادٍ قادمين هم المصطفون الأخيار.

هؤلاء الرجال هم مَن يمهِّد الله ﷻ بهم سير القلوب إلى ربيعها، بل يمهِّد الله بهم سير آياته إلى قلوبها... فتتحوَّل حياتها كلها إلى ربيع؛

شيخ حبيب لبيب.. هين لين سهل قريب.. تنحدر كلماته كما الماء البارد على الجوف الملتهب، فإذا بها تتشرَّبها تشرُّبًا، لأنها تعشق كلماته عشقًا.. ودونك بمَن أمر الله جبريل عليه السلام أن ينادي في أهل السماء باسمه، فيحبه أهل السماء كافة، ويوضع له القبول في الأرض؛ فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِذَا أَحَبَّ اللهُ عَبْدًا نَادَى جِبْرِيلَ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ**

يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي أَهْلِ الْأَرْضِ»[(١)].

فسبحان الله كيف أكرم الله رجلًا بأن جعل كلماته البشرية مُهَيِّئَة قلوب العباد لكلمات الله العلية.. وهل من طارق يطرق القلوب بخير مثل هذا الطارق.. هل من طارق يستأذن لشيء مثل هذا المستأذن للقلوب، أن افتحوا لكتاب الله فإنه قد اقترب.. إنه يكاد يصل إليكم ويشرق عليكم.. بل ها هو قد وصل.. ألا ترون.. ألا تسمعون؛ أي روح تطرق باب قلبي، تسري في كلماته.. بل الروح التي وصلت هي من عظمة كلماته.. من أين جاءت.. هكذا تأتيه القلوب سعيًا ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].. فإنِ اثَّاقَلْتَ عن فهم هذا وتساءلت: لِمَ هذا لهذا.. ومن أين جاءت هذه الروح في قوله؛ أقول: ومن أين جاءت القوة في وعده سبحانه إبراهيم عليه السلام.. ومن أين بعثت الحياة في لحم طير ممزق؟ فلا جواب إلا إنه أمر الله الذي صدر فسرى، ثم جرى، فجرت الحياة حيث جرى، أمر ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥].. وذلك في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

الأمر ليس أمر حفظ القرآن كاملًا، ولا هو تجويده، ولا قراءة تفسيره. إنه مع ذلك كله أن يصبح القرآن «**رَبِيعَ قَلْبِي**»: يسلب لبي، ويستغرق حبي، ويجلل

(١) رواه البخاري (٦٠٤٠) واللفظ له، ومسلم (٢٦٣٧).

فهمي، ويعلي همتي فتشرق به غايتي.. بل تشرق به مسيرتي وحياتي، وعلاقاتي وأعظمها علاقتي بربي.

إنه المفتاح قد وهبه الله ﷻ لـمَن شاء من خلقه... فأقدموا فاتحين في كل مجلس، ومقام، وديوان، وخلوة، وجلوة، وفضاءٍ، وبنيان.. لكتاب الله داعين وبكلام الله تعالى معرِّفين مُفَهِّمين.

لا عجب في هذا إذا أُعيدت الأمور إلى نصابها.. وأُعيدت المقامات العلية إلى أصحابها.. فهؤلاء من خلاصة الخاصة، وإنهم جميعًا كما قال النبي ﷺ فيهم: «**هُمْ أَهْلُ الْقُرْآنِ، أَهْلُ اللهِ وَخَاصَّتُهُ**»(١).

ثم لا تسأل مَن هذا الذي يَمُنُّ الله ﷻ عليه من بين الخاصة بهذه المنة العظمى.. بحيث يحيل الله ﷻ إجابة هذا الدعاء العظيم إليه ويحققها على يديه.. فيجعل كتابه الكريم بهذا الإمام ربيع قلبي وقلبك، ونور صدورنا، وجلاء أحزاننا، وذهاب همومنا..

لا تسأل عن هذا الأمر وحده فحسب فالأمر أعظم، ولكن سل عن هذا الذي جعله الله ﷻ إجابة السؤال «**أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ**».. فجاء هذا النور من هذا الجيل حاملًا مفتاح قلوب الجيل فإذا القلوب بالقرآن ربيع... وإذا بها من القلوب نور للصدور، وجلاء

---

(١) رواه ابن ماجه (٢١٥)، وأحمد (١٢٢٧٩)، والحاكم (٢٠٤٦)، وقال: «وَقَدْ رُوِيَ هَذَا الْحَدِيثُ مِنْ ثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ عَنْ أَنَسٍ هَذَا أَمْثَلُهَا»، وقال الذهبيّ: هذا أجودها، وقال الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء ص (٣٢٣): أخرجه النَّسَائِيّ فِي الْكُبْرَى وَابْن مَاجَه وَالْحَاكِم من حَدِيث أنس بِإِسْنَاد حسن، وقال البوصيري في مصباح الزجاجة (١/ ٢٩): هَذَا إِسْنَاد صَحِيح رِجَاله موثقون، وقال الأرنؤوط: إسناده حسن.

للأحزان، وذهاب للهموم... هو لا يفعل ذلك بذاته، ولكن بكلمات ربه، فهي الربيع، وهي النور، وهي جلاء الأحزان، وذهاب الهموم.. وهو ما لم تَسُقْه الرياح ولا المياه الجاريات نحوك، إنما هو سوق أسماء الله الحسنى، ولله المثل الأعلى...

فهل يمكن لأحدٍ أن يتصور هذه الكرامة لهذا الإمام وإن لم يُذكَر بين المشاهير وفي الإعلام.. بل لم يذكر بين الأنام، وهو موجود - بفضل الله - في كل ديار الإسلام وإن كان على نُدرة، وسيكون - بإذن الله - على وفرة.

«**أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي**»: سبحان الله: فإن تفاصيل الإكرام تجري بين الأنام وصاحبه لا يدري إلا إذا انقطعت.. كما تجري الدماء في تفاصيل البدن إلى كل جزئية في الإنسان وهو يعيش ولا يدري بها إلا إذا انقطعت عن جزء من أجزاء بدنه فتعطل أو تألم.

فهذا الداعي الذي ألحَّ على الله أيامًا وليالي بهذا الدعاء العظيم «**أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ**» إلى آخر الدعاء وأجاب الله دعاءه، ربما نسي أنه دعا هذا الدعاء العظيم.. نسى أن هذا الشيخ هو الذي حبَّبه في القرآن، هو مَن أَلَّف الله تعالى بين قلبه وبين القرآن، وأذهب أحزانه بالقرآن، وأزال همومه بالقرآن، هو هذا الشيخ الذي يحفظ عنده القرآن، أو يقرأ على يديه القرآن، أو هو ذاك الحافظ الذي حفظه، ثم نسي القرآن، فجاء الشيخ حامل ربيع القلب فأعاده للحفظ، بل أعاد الوُدَّ بينه وبين كلمات الله إلى يوم لقاء الله، حين فتح له مما فتح الله عليه من قبل بالقرآن.. دعاه فهداه الله لحفظ كتابه الكريم على يده أو يد غيره.. فهم فلزم.. وتذوَّق الإيمان والقرآن فالتزم، أو دعاه للزوم قراءة

القرآن آناء الليل والنهار فتعاهده وغنم ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر: ٩] من غير أن يحفظه.

ألا ما أعظم الوفاء لهذا النوع من البشر، وما أعظم حقهم علينا، وما أقبح كفران عشرتهم، وكفران فضلهم، ومعاداتهم؛ إن هذا السلوك المشين لهو شهادة على أن سلوك هؤلاء شهادة على أنهم انقطعوا عن الربيع، وانقطع الربيع عن قلوبهم.. وعند هؤلاء حل الخراب والخريف وإن استمروا على برامج القرآن.. فالقرآن حياة، والقرآن يحيي الحياة، ويحيي مصدر الحياة ومبعثها وهو القلب «**أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي**»، هنا وللأسف ابتدأ الانسلاخ وزحفه ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧٥].

وهذا دعاء للعالمين أجمعين:

«**أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي**»: هذا المطلب العظيم وإن كان الفهم الأول والمباشر له عند عامة الناس أنه لأهل القرآن من حُفَّاظ، ومُحَفِّظين، وطلاب، وأصحاب حلقات، في كل مكان، أو مَن في البيوت أو الخيام...

فإن الحقيقة هو أنه لا يخص هؤلاء وحدهم مع القرآن، وإنما هو لكل واحدٍ من أمة القرآن.. لكل مهموم لكل مدين، لكل مظلوم، لكل محزون.. بل هو لكل طالبِ رِبْعة القرآن العظيم.. لكل مسلم ومسلمة يبتغيان الربيع لقلبيهما بالقرآن.. لكل طالبِ نورٍ لصدره بالقرآن.. ولكل طالب جلاء حزنه بالقرآن وهكذا.

وهو لكل ساعٍ لفهم القرآن فهمًا أعلى وأسمى وأعظم.. لكل طالب إمامة قلوب المؤمنين يقودها إلى طريق الربيع إلى القرآن وبالقرآن.

هذا دعاء لكل مظلم القلب ولو كان ضالًّا على غير ملة الإسلام؛ فالله ﷻ قد استجاب للكافرين حين ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [يونس: ٢٢] لنجاتهم وهو يعلم أنه إذا نجاهم كفروا، فكيف لا يستجيب لهم لو أنهم دعوه لنجاتهم في الدنيا والآخرة؟!

أولم يقل الله ﷻ: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، فهل حدَّ الله للإسراف من الذنوب حدًّا يغفره وبعده لا يغفره، أم أنه نادى الجميع بغير حدٍّ ولا توقيت من ليل أو نهار ولا عدّ؟!

كم من مسرفٍ على نفسه في هذا الزمان استيقظ في ليلةٍ على إلماحة من يقظةٍ قلبٍ.. فأخذ ينادي في ظلمته.. إن كنت موجودًا فدلني عليك.. إن كنت.. وإن كنت.. وإن كنت..! فجاءه الهدى من حيث لا يحتسب.. وما سمعت واحدًا نادى ربه نداءً صادقًا إلا أنقذه الله من الكفر إلى الإيمان..

أيستكثر البعض هذا النداء على كافر، أو ملحد، أو فاسق، أو فاجر؟! فليكن أي نداء.. أيرده الله سبحانه.. فكيف إذا حفظ كافرٌ هذا النداء العظيم، وقاله من أعماق قلبه؟ أيرده الله؟ هل يرد الوالد ولده المرتد المتعاطي العاق القاتل السارق الآبق إذا تفاجأ به أبوه يومًا وهو خارج لصلاة الفجر إذ بولده متوسِّد عتبة باب بيتهم.. آيبًا تائبًا نادمًا.. ألا يقيمه ويضمه إلى صدره حتى يوشك أن يدخله بين أضلاعه لو استطاع، وقد قال النبي ﷺ: «**لَلَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ**

بِوَلَدِهَا»، وذلك في الحديث العظيم الذي رواه عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ قَالَ: «قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ سَبْيٌ، فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبْيِ قَدْ تَحْلُبُ ثَدْيَهَا تَسْقِي، إِذَا وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ أَخَذَتْهُ فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا وَأَرْضَعَتْهُ، فَقَالَ لَنَا النَّبِيُّ ﷺ: أَتَرَوْنَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟ قُلْنَا: لَا، وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَلَّا تَطْرَحَهُ، فَقَالَ: لَلهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا»[(١)].

هو لكل إمام في الإسلام مهما علا الإمام، فهذا القرآن هو أعلى، وما فيه أعلى من كل مقام، وإنه كما قال الله ﷻ: ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾ [ص: ١]، وقال سبحانه: ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ٤].

ولما كان كتاب الله تعالى ﴿لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ كان حقُّه أن يتوسل إلى الله ﷻ بأعلى شيء وهي أسماء الله الحسنى.. وكان مَن يجعله الله مناط إجابة التوسل إليه بأسمائه الحسنى إنما هم خير الناس وخير الخيِّرين «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ»[(٢)]، فإن تَعَلُّم القرآن وتعليمه لهو أكبر من حفظ القرآن، وليس هذا انتقاصًا من حفظ كتاب الله.. ومَن يجرؤ على ذلك، إنما الحفظ والتحفيظ جزء أساسي... لكن مَن يستطيع أن يرتقي بنفسه وبالآخرين إلى الحب والتحبيب، والفهم والتفهيم، والتزكية وزيادة الإيمان واليقين، والدعوة بهذا والتربية والتعليم.

دوام الربيع:

«أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجِلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي»:

(١) رواه البخاري (٥٩٩٩) واللفظ له، ومسلم (٢٧٥٤).

(٢) رواه البخاري (٥٠٢٧).

إن المرء يريد جلاء الحزن، وذهاب الهم والغم.. **ليس لمرة واحدة**؛ فالأحزان لا تتوقف وكذا الهموم والغموم.. ولكن ما دام القلب ربيعًا فإن جلاء الحزن ذاتي أيًّا كان الحزن، ومتى كان، وكذلك الهم والغم.. كيف وربيع القلب هو القرآن.. فهذا الدعاء ليس لمرة واحدة، إنما دعاء دائم ما دامت الحياة.. ومن منافع وجود شيء متكرر من الأحزان والهموم والغموم إعادة المرء لأن يدعو ربه مرة بعد أخرى بهذا الدعاء وغيره من الأدعية كلما تجدد الحزن وفي كل مرة بطعم جديد واضطرار جديد، ونوع من الاقتراب جديد لم يتذوقه من قبل، وذلك مثل دعاء المرء في كل ليلة قدر جديدة «**اللَّهُمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ تُحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي**»[(١)]، وهكذا يدعو بهذا الدعاء طوال الليلة الواحدة، كما يدعو بغيره.. لكن التركيز عليه، ولكل دعوة طعمها، ورجاؤها، ومخافتها، وخشيتها، أو خشية فواتها، ولها حضورها في نفس الداعي، فهو يدعو بها فيستذكر نفسه فيقدمها، ويستحضر والديه فيقدمهم على نفسه، وهكذا أولاده، وذرياتهم من بعده، ويستحضر إخوانه في الإسلام.. يستحضر المسلمين، وهكذا تتسع الدائرة حتى يدعو بها لجميع الناس كرسالة رسول الله ﷺ ورحمته ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، ودخول كل هؤلاء في رحمة الله لن ينقص من عطاء الله للداعي لهم مهما كثروا ذرة.. بل يزيده الله بقدر مَن دعا لهم، هكذا علَّمنا الله ﷻ، وحقيقة الأمر أن الله ﷻ هو مَن يذكِّره ويذكِّر الصادقين في طلباتهم هذه، كما يذكر هو سبحانه الطالبين في أهل الجنة بطلبات نسوها وأخرى لم

(١) رواه الترمذي (٣٥١٣)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ. وابن ماجه (٣٨٥٠)، وأحمد (٢٥٣٨٤)، وقال الأرنؤوط: إسناده صحيح.

يعرفوها أساسًا؛ ليعطيهم إياها، فهو الغني الكريم، وهو الواسع العليم، وهو القريب الودود سبحانه.

ربيع العمر من [رَبِيعِ القَلْبِ][١]:

فماذا ينتظر من الإنسان أعظم من أن يعيش في ربيع.. بل يصبح قلبه في ربيع.. بل يصبح القرآن هو ربيع قلبه.. الله أكبر، فلسوف تكتشف الآن أن هذا هو ربيع العمر الحقيقي.. فهل يَرْحَل العاقل عن الربيع إلى الخريف **وهو يستطيع أن لا يرحل**.. إن الربيع هنا هو القرآن العظيم.. وإن موقع الربيع هو القلب، وهو أرضه.. والقرآن لا يترك مَن لا يريد تركه.. ويحفظ مَن حفظه، ويبقى صاحبه مكفولًا مضمونًا آمنًا مأمونًا، فلا مكان للهموم والغموم.. كما في هذا الحديث: «**رَبِيعَ قَلْبِي، وَجِلَاءَ هَمِّي وَغَمِّي**»، وفي الحديث: «**مَنْ كَانَتِ الْآخِرَةُ هَمَّهُ، جَعَلَ اللهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ، جَعَلَ اللهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُدِّرَ لَهُ**»[٢].

وأعود لأسأل: هل ترك رسول الله ﷺ شيئًا من أسماء الله الحسنى لم يسأل به «**أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ**»؟! هل فَصَّلَ رسول الله ﷺ في أسماء الله الحسنى مثل هذا التفصيل المنقطع النظير: «**سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ**»؟! فهذا والله [**هو المنتهى من الحشد لأسماء الله الحسنى**].

---

(١) من كتاب شرح حديث المقنطرين للمؤلف.

(٢) رواه الترمذي (٢٤٦٥)، وصححه الألباني.

فلأجل أي شيء كان هذا السؤال الذي لم يُسبَق ولم يُلحَق بمثله؟! إنه لأجل كلام الله – سبحانه – لأجل هذا القرآن الكريم الذي لم يُسْبَقْ ولم يُلْحَقْ بمثله أبدًا... ألا ترى أن المطلوب لـمَّا تناهى في العظمة وهو القرآن العظيم تناهى لأجله الرجاء في الوسيلة فلا وسيلة مثلها في دعاء آخر أبدًا.

الربيع عالم كامل:

يقولون: الربيع هو المطر، وآخرون يقولون: هو الغرس، وهو الشجر والثمر، ويقولون: هو الأجواء الطيبة، والوسط من بين فصول السنة، والأحسن والأعلى عند نفوس البشر، ويقولون: هو الخصب خِلْقة، وهو الجمال والزهر، والحقيقة أن الربيع كل ذلك وأكثر.. الربيع منظومة واحدة من الأرزاق، والعذوبة، والكائنات، واللطف، والحسن؛ من حسن الأصوات إلى حسن الأضواء إلى حسن الأطعمة والثمرات إلى حسن المناظر... فالربيع هو المثل الأعلى للفصول، وهو المثل الأعلى في إنتاجه وجماله، وجمال ليله ونهاره، وشمسه وقمره، وصحوه وسحبه، واعتدال دفئه وبرده.

فهو زينة الفصول وبهجتها، فهل فهمنا مطلوب النبي ﷺ، وأي نوع من القلوب أراد.. وأي شخصية أراد.. وأي وسطية أراد.. وأي صنع يصنعه القرآن في القلب، وفي صاحب القلب، وفي حياته كلها، وفي حياة الناس من حوله.. فصاحبه ربيع حيثما حلَّ وارتحل، وكذلك تمثيل حامل القرآن بالأترجة، فأَصْبَحَ كالأترجة لما طاب جوفها ما ملكت إمساك طيبها عن تغلغل عَبَقِها إلى جوف الناس وصدورهم، لا يملكون ردَّها فهي تجري مع النَّفَس؛ فَعَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَثَلُ الْـمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ**

كَمَثَلِ الْأُتْرُجَّةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ، وَمَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ التَّمْرَةِ، لَا رِيحَ لَهَا وَطَعْمُهَا حُلْوٌ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَثَلُ الرَّيْحَانَةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ، لَيْسَ لَهَا رِيحٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ»[1].

ولهذا فإن تغيير القلب حتى يصبح ربيعًا مبشرًا ومؤذنًا بأن الربيع على الأبواب، وأنه إذا حلَّ جاءت له القلوب الأخرى تقود أصحابها، كما يرتاد البشر بعضهم بعضًا نحو الربيع، وكذا الطير والدواب والفراش.. وهكذا تتغير الأجواء وتتغير الأرض، وتتغير الرياح، بل تتغير السماء.. وإلا كيف يكون الربيع..؟ وهكذا يمتد الربيع لأن الحياة تعشقه، وتنجذب إليه، وتتشوَّفه، وهكذا يقيم ربيع القرآن العظيم ويدوم.. **فلو خُيِّرَ الناس ما اختاروا غير الربيع حياة**.. فليست قراءة القرآن وحدها ربيعًا؛ إنما هي أساس الحفظ والعمل الشخصي أساس.. وهكذا يكبر الربيع وتتسع مساحة الربيع، ولا تزال حتى تسع الأرض كلها.

ولكن الطلب ليس هو أن أقرأ القرآن فحسب، ولا أحفظ القرآن فحسب، ولا أحب القرآن فحسب، إنما هو «**أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي**» ربيعًا لا خريفَ بعده أبدًا، وربيعًا ملازمًا لا فراقَ بعده أبدًا، وربيعًا مثمرًا لا انقطاعَ لثمره أبدًا، وربيعًا يكون ثمره أن يصبح خُلُقي القرآن في كل شيء أبدًا، وربيعًا فلا مجال في قلبي للشيطان – نعوذ بالله منه – أبدًا، ولا نصيب في جوفي للخراب والبوار أبدًا.

«**رَبِيعَ قَلْبِي**»: فَمِنْ ربيع هذا القلب تستقي حياة صاحبه ربيعها ونورها

(١) رواه البخاري (٥٤٢٧)، ومسلم (٧٩٧).

وبركتها وهداها، لأن نور هذا القلب إنما هو القرآن العظيم، ومن ربيع هذا القلب تثمر القلوب الأخرى لأن منه تُزْرع فتخصب فتثمر، ومن ربيع هذا القلب يفيض الخير على كل مكان، ويسقي كل جدب، ويغاث كل مستغيث للهدى في صحراء الدنيا... فإذا صلح قلب الإنسان صلح جسده كلُّه، وإذا صلح قلب الحيّ صلح الحيّ كله، وإذا صلح قلب المجتمع صلح المجتمع كله، وإذا صلح قلب البلد صلح البلد كله، وإذا صلح قلب الأمة صلحت الأمة كلها، وهكذا. وهكذا الأمر في النور... فالربيع والنور لا يفترقان أبدًا.

«**رَبِيعَ قَلْبِي**»: «**أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي**»: لم يجعل النبي ﷺ هذا الطلب مختصًّا بأمر الدين، ولا أي أمرٍ آخر من أمور الحياة وهمومها أبدًا.. إنما جعله موجهًا للقلب الذي هو مَن يقود الإنسان كله.. وقلب الشيء هو الأساس.. لم يذهب النبي ﷺ إلى الأطراف، أو إلى الحواشي، أو إلى المظاهر.. فهو ﷺ يحقق الحل الجذري، يحقق العلاج الكامل لكل شيء، يهب الشفاء التام الذي لا يغادر سقمًا، يحقق التغيير الكامل والدائم.. وما الزِّرُّ والسِّرُّ الذي به يكون كل هذا إلا القلب.. والتغيير في القلب يشمل الدنيا والآخرة ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [سورة الشعراء].

إن تغيير القلب لا ينحصر في تغيير موقف عصيب، بل إصلاح شخص لكل موقف قادم مهما كان عصيبًا، إنه صناعة رجل موقف.. وصناعة طريق للنجاح جديد.. ملاذ يلوذ إليه هذا المنكوب في كل مرة.. فالعلاقة غدت واضحة والثقة به أكبر من ناجحة...

الكلمة السادسة

ونور صدري

«وَنُورَ صَدْرِي»

إن هذه لهي أجواء الربيع.. وامتداد الربيع.. فما دام القرآن العظيم أصبح ربيع القلب.. لا بد لهذا القلب أن يعظم.. لا بد لسقف همته أن يكبر ويعلو.. لا بد لفضاء مقاصده أن تتسع وتستنير.

«**وَنُورَ صَدْرِي**»: فاجعل يا رب نور قلبي يتعدَّى قلبي ويفيض حتى يملأ ما حوله وهو صدري، فإذا تَعَدَّى القلب تعدَّى إلى الوجه.. تعدَّى إلى اليد والرِّجل والأطراف.. تعدَّى إلى كل شيء ولا يمسكه شيء، ولا يمنعه حجاب، كما جاء في الحديث: «**فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطُشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا**»(١).

«**وَنُورَ صَدْرِي**»: فيتوهج نورًا، وهداية، ورحمة لكل الخلق، لا يملك إلا أن يُشرق وتشرق به طرق الناس المظلمة: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

«**وَنُورَ صَدْرِي**»: فاجعله يا رب كالنور لَـمَّا أوقد في الزجاجة المباركة

(١) رواه البخاري (٦٥٠٢).

بالقرآن إذ أصبحت كالكوكب الدُّرِّيِّ نوره يصل إلى كل أحد، ويَهتدي به في ظلمة الليل كل أحدٍ يلتمس في الليل البهيم نارًا ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٖۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۗ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ﴾ [النور: ٣٥].

وأخرج الطبري بسنده الحسن عن أبي العالية، عن أبي بن كعب ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ﴾ قال: مثل المؤمن قد جعل الإيمان والقرآن في صدره كمشكاة، قال: المشكاة: صدره، ﴿فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ﴾ قال: مثل القرآن والإيمان الذي جعل في صدره، ﴿ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٖۖ﴾ قال: والزجاجة: قلبه، ﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ﴾ قال: فمثله مما استنار فيه القرآن والإيمان كأنه كوكب دري، يقول: مضيء، ﴿توقد[1] مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ﴾ والشجرة المباركة أصله المباركة الإخلاص لله وحده وعبادته، لا شريك له، ﴿لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ﴾ قال: فمثله مثل شجرة التف بها الشجر، فهي خضراء ناعمة، لا تصيبها الشمس على أي حال كانت، لا إذا طلعت، ولا إذا غربت، وكذلك هذا المؤمن قد أجير من أن يصيبه شيء من الغير، وقد ابتلى بها فثبته الله فيها، فهو بين أربع خلال، إن أُعطي شكر، وإن ابتلي صبر، وإن حكم عدل، وإن قال صدق، فهو في سائر الناس كالرجل الحي يمشي في قبور الأموات، قال ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۗ﴾ فهو يتقلب في

(١) (تُوقَدُ)، و(يُوقَدُ) قراءتان متواترتان؛ فالأولى (تُوقَدُ) بالتأنيث أي: الزجاجة، والثانية (يُوقَدُ) بالتذكير أي: الكوكب.

خمسة من النور، فكلامه نور، وعمله نور، ومدخله نور، ومخرجه نور، ومصيره إلى النور يوم القيامة في الجنة[١].

قال ربنا ﷻ: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢] فالصدر هو المساحة الأصلية التي أوقد نورها من القلب.. ولهذا كان أول الدعاء الذي نقوله عند أول خطوة نخطوها من مَقرِّنا إلى مقر النور في الأرض؛ وهو المسجد: «**اللَّهُمَّ اجْعَلْ فِي قَلْبِي نُورًا، وَفِي سَمْعِي نُورًا، وَفِي بَصَرِي نُورًا، وَعَنْ يَمِينِي نُورًا، وَعَنْ شِمَالِي نُورًا، وَأَمَامِي نُورًا، وَخَلْفِي نُورًا، وَفَوْقِي نُورًا، وَتَحْتِي نُورًا، وَاجْعَلْنِي نُورًا**»[٢]، مع أن مصادر النور في هذه الدنيا للمؤمن كثيرة إلا أن مصدر المصادر وهو مصدر لكل مؤمن ولكل قلب إنما هو كلام الله ﷻ، قال ربنا سبحانه لرسوله ﷺ: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١]، وهكذا كانت كتب الله في الأقوام السابقة كما قال سبحانه عن موسى عليه السلام وقومه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال سبحانه لعيسى عليه السلام وقومه: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٤٦]، فإخراج الناس من الظلمات

---

(١) موسوعة الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور (٣/ ٤٧٠-٤٧١).

(٢) رواه البخاري (٦٣١٦)، ومسلم (٧٦٣) واللفظ له.

إلى النور عند رسول الله ﷺ إنما هو بهذا القرآن الذي أنزله الله على رسول الله ﷺ، وذلك بعدما حُرِّف الكثير منها على أيدي الكثير من الأحبار والرهبان، كما جاء ذلك صريحًا في القرآن، فجاء الله بهذا الكتاب الذي لا يحتاج لكتاب معه أبدًا، ولا كتاب بعده أبدًا، مع وجوب الإيمان بتلك الكتب الكريمة كما هو الإيمان بجميع المرسلين عليهم السلام.

ولهذا يبقى الأمل العظيم في إعادة الناس جميعًا إلى الله وإخراجهم من الظلمات إلى النور إنما هو بأهل القرآن حقًّا وحقيقة، ولقد وعدنا الله ﷻ بأنه سيتم نوره.. وينابيع النور في الأرض ستتم نوره؛ فقال سبحانه: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [سورة التوبة]، وأكمل الله وعده هذا في سورة الصف فقال سبحانه: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [سورة الصف].

لا شك أن أسباب النور كثيرة؛ منها علوم، ومنها أعمال.. وكلها ستتحول يوم القيامة إلى أنوار حقيقية.. يمشي بها المؤمن بين الناس كلٌّ على حسب عمله.. إلا أن النور الذي كان في الدنيا نورًا ويبقى في الآخرة نورًا إنما هو القرآن، أُنزل نورًا، فأنار القلوب، وأصبحت الصدور به نورًا، وأصبح في الحياة نورًا.. وصاحبه نورًا يمشي به بين الناس.. ويبقى إلى الأبد نورًا، والحمد لله رب العالمين.

فكيف سيكون نور القرآن لصاحبه يوم القيامة... ذلك هو الذي ننتظره يوم القيامة.. فإنه يستحيل على عبدٍ تصور ذلك على حقيقته الآن إلا رسول الله ﷺ،

ومع هذا فأهل القرآن درجات.. ودرجات، فلا يستوي مَن جعل القرآن أمامه وإمامه.. ممن حفظ القرآن ونام عنه قيامًا، ونام عنه بلاغًا، ونام عنه تعليمًا، وتربية، والتزامًا. فاللهم اجعل القرآن ربيع قلوبنا، ونور أبصارنا، وجلاء أحزاننا، وذهاب همومنا.

فهل رأينا أي دعاء عظيم دعا به رسول الله ﷺ حين عَلَّمنا وأمرنا بتعليمه وتبليغه؟!

الكلمة السابعة

هنا لا استقرار للأحزان أبدًا

«وَجِلاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي»

«**وَجِلَاءَ حُزْنِي**»: يا رب لا أملك ردَّ الأحزان عن نفسي وأنا في دار الأحزان؟! لكني يا رب يا من رزقتني القرآن الكريم اجعل هذا القرآن **نافيًا لكل الأحزان**، فلا يستطيع حزنٌ الاستقرار في قلبي لأن القرآن قد جعلته ربّي ربيعه.

إن الحزن من الشيطان الرجيم - عليه لعنة الله - كما قال - سبحانه -: ﴿لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [المجادلة: ١٠]، وهذا العبد تربية القرآن... لذا سرعان ما يَنْقَضُّ القرآن بنوره المبين على الشيطان وجنده ويطهر منه القلب ويغسل آثاره ويزيل ظلامه، فيا رب لِمَ أحزن وعندي القرآن... وأنت القائل سبحانك: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨]، ويقول سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ [سورة سبأ].

«**وَجِلَاءَ حُزْنِي**»: لم يكن هذا بطريقة غير الطريقة التي مضت في كل هذا الطلب العظيم... فإن القرآن العظيم قد فَعَلَ فِعْلَهُ الطاهر المطهر.. المنير المنور المبارك حتى مَلَكَ على العبد كل شيء حين ملك قلبه... فلم يَعُدْ في القلب إلهٌ

إلا الله - سبحانه - فالكل ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٣]، فَلِمَ الحزن إذًا، وكل الحزن والأحزان طارئة، بينما القلب حوَّله الله فجعله شيئًا آخر، قد أصبح حمى الله لا يقربه أحد، ولا يتعدى حدوده أحد لأن القرآن قد غدا ربيعه... فاليقين قد رسَّخه الله - سبحانه - بالقرآن فلا يزول لو زالت السماوات والأرض والجبال، لأن القرآن أعظم من كل مخلوق فهو كلام الله، ولو تلوَّنت الأيام وأهلها وأظلمت الدنيا من مشارقها ومغاربها مِنْ حَوْلِهِ ما تَحَوَّل، لأن نور القرآن قد جعله الله يملأ صدره ومَن ذا الذي يُطْفِئُ نور الله؟! قال ربنا سبحانه: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢].

«**وَجِلَاءَ حُزْنِي**»: وقد أجمع كل من أُصيب بِهَمٍّ وفتح المصحف الكريم وقرأ وَجَدَ فَرَجه بين عينيه، وطار حزنه من لحظته حتى إنه يتساءل: ما الذي تغيَّر من حولي؟ ما الذي تَبَدَّلَ؟... بل أين ما أحزنني؟... أين ما أهمَّني؟... لم يجد لذلك أثرًا! وصدق الله ﷻ إذ قال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [سورة الناس]، ولهذا جاء بعد هذا الدعاء النتيجة التي أخبر بها رسول الله ﷺ: «**إِلَّا أَذْهَبَ اللهُ هَمَّهُ وَحُزْنَهُ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَحًا**»(١).

حقًّا إن الناظر في هذه الاستغاثة من رسول الله ﷺ المنقطعة النظير... ليدرك

(١) سبق تخريج الحديث في مطلع الكتاب، وهذا النقل من كتاب [خيركم يا خير أمة مَن تعلَّم القرآن وعلَّمه] للمؤلف.

أن المسألة أكبر من موضوع رجل عاجز عن دَيْنٍ وَرَّثه أبوه، أو مهموم من هموم الدنيا، أو مكروب بكربٍ من كرباتها... إنما مَن عاش في هذا الموطن... في هذا الزمان بنفسه.. في ليله ونهاره رأى كلمات رسول الله ﷺ تنزل على قلبه الملتهب غيثًا مغيثًا سحًّا غدقًا طبقًا.. فكان هو البرد والسلام.. وكان بردًا وسلامًا على ناره الملتهبة بقلبه.. من ربه السلام.. كما رآها ربيعًا خصيبًا زاهيًا زاهرًا يعبق طيبًا.. **هذا أولًا**.

أما ثانيًا: فإنه لا يستكثر هذا السؤال، وإنه والله لكثير وكبير على مَن علم أن النبي ﷺ إنما سأل للقرآن العظيم أن يأخذ دوره في حياة هذا الإنسان.. أن يباشر تزكية مركز القيادة، ويصنع صنعه.. **فالقرآن يستحق ذلك**، فإن لم يكن هذا السؤال العظيم بأسماء الله الحسنى للقرآن العظيم فلأي شيء يكون.. أوليس السؤال هنا بأسماء الله الحسنى لكلام الله العظيم؛ فأي مناسبة لسؤال ومسؤول مثل سؤال رسول ﷺ.

أما ثالثًا: فإن إدراك المقصود الأعم الأشمل والأكبر لهذا الدعاء فسيأتي معنا في [خاتمة الربيع]، وهي آخر فقرة في هذا الكتاب، والحمد لله رب العالمين.

الكلمة الثامنة

وَذَهَابَ هَمِّي

القضاء على الظلمات وكائناتها بـ [نُورِ صَدْرِي]:

«وَجِلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي»

ما هذه الصورة الكاملة لصنيع القرآن العظيم: فهذا القلب الذي أصبح بورًا، وأرضه خرابًا وجفافًا أغاثه الله سبحانه بعد الاستغاثة بأسمائه الحسنى كلها بالقرآن العظيم، وقد جاء تسمية القرآن بالغيث، ووصف القلوب بالأودية، وذلك في قول الله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧]، وقال النبي ﷺ: «**إِنَّ مَثَلَ مَا بَعَثَنِيَ اللهُ بِهِ ﷻ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا مِنْهَا وَسَقَوْا وَرَعَوْا، وَأَصَابَ طَائِفَةً مِنْهَا أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللهِ وَنَفَعَهُ بِمَا بَعَثَنِيَ اللهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ**»[(١)].

(١) رواه البخاري (٧٩)، ومسلم (٢٢٨٢) واللفظ له.

فأي شيء يمكن أن ينزل على القلب فيكون هو ربيع القلب بعدما كان بفراق القرآن، وفراق تدبره من شدة الهموم صَلْفًا وبورًا، وقد قال النبي ﷺ: «**إِنَّ الَّذِي لَيْسَ فِي جَوْفِهِ شَيْءٌ مِنَ الْقُرْآنِ كَالْبَيْتِ الْخَرِبِ**»(١)، فالنبي ﷺ تجاوز هذه المرحلة، وتجاوز مراحلها في استغاثته بربه، فقدم الطلب من فوره، وبكمال ثمرته فقال: «**أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي**»، فهو ما طلب غرسًا ولا فسائل ولا بذرًا، ولا طلب ثمرًا محدَّدًا محدودًا من ثمار الربيع، ولا جوًّا معينًا من أجوائه.. ولا مطرًا ولا ضبابًا.. **وإنما طلب الربيع بِرُمَّته**.. بكليته.. ثم ربيع من هذا؟ والجواب: جاء القرآن ربيع قلبي.

ألا والله ما أغلاه من دعاء، وحق للقرآن العظيم أن يكون به الابتداء وبه الانتهاء، ويكون ابتداؤه بالقلب، ففي الصدر - والعياذ بالله - يوسوس الشيطان، وفيه يكمن كما قال الله سبحانه: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [سورة الناس]، فالنور هو ما يقضي على الظلام، وكائنات الظلام، والله يعلم ماذا يصنع نورُ كلماته إذا أشرقت في الصدور تلك... وأي ربيع يكون بغير نور، فإذا كان [الربيع] على الأرض فإن [النور] في الفضاء ومن السماء، وهكذا هي الصدور الحاوية للقلوب.

---

(١) رواه الترمذي (٢٩١٣)، وقال: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، وأحمد (١٩٤٧)، والحاكم (٢٠٣٧)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ، وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح.

استعاذة بالله من الحزن:

«**وَجِلَاءَ حُزْنِي**»: إن الحزن إذا طال تمكن من الإنسان، وربما أتلف من أحاسيسه، بل ربما أتلف من شرايينه وأعصابه ما أتلف.. فالحمد لله الذي هدى رسوله ﷺ إلى هذه الدعوة فهدانا.. وإلا فمن يتفطن لها سواه ﷺ.. فما اكتفى ﷺ أن يكون القرآن ربيع القلب ونور الصدر.. ولكن ثمة آثار لا بد أن يشفى منها وذلك بأن يجلوها ويمحوها فلا يُبقي لها أثرًا، حقًّا إنه ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، ومَن جرَّب الهموم والغموم والأحزان مثل رسول الله ﷺ؟!

«**وَجِلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي**»: ذهاب الهم والغم لا يكون في العادة إلا بذهاب أسبابه، وتبدل الحال، ولربما يغير الله الحال من حولك والأسباب قائمة، كأن لا تملك ما يَقْضي دينك، ولكن الله يسخر لك من عباده مَن يقضي عنك دينك، وربما تنازل صاحب الدين، وربما كفلك مليء لمدة يتيسَّر فيها أمرك، ولربما وربما، فلا تقيد الدعاء بصورة واحدة؛ فالله ﷻ لا يقيده شيء سبحانه، وربما تحول الحال كله، وتحول ما كان بالأمس همًّا إلى أن أصبح فرحًا كمَن أُخرج من بلده أو بلد عمله فجعل الله له في الأرض ﴿مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ [النساء: ١٠٠]، وقد كان مثل الجنين لا يتصوَّر مكانًا له أوسع من الرحم، هذا لو تصوَّر، لكنه حين نزل إلى الأرض رأى الرحابة والسعة، فرحل ووسّع الله عليه فقضى دينه وأحسن وزاد، ووصل رحمه، وكفل وكفى.

«**وَذَهَابَ هَمِّي**»: الحمد لله أن رسول الله ﷺ في دعوته هذه العظيمة ما ذكر فيها خصوصية معينة لنوع من أنواع الهموم، بل تركها ﷺ لكل مهموم

ومغموم.. فبقي الدعاء على إطلاقه.. على عظمته لا تقيده الأرقام والفهارس، ولا تحجِّره الظنون والتصورات.. فهو عدة عظيمة لكل الهموم والغموم، ولكل العدوان والطغيان.. وهل من شيء في هذا الوجود يخرج عن أسماء الله الحسنى.. فكيف وقد استغرق رسول الله ﷺ بهذا الدعاء فلا يفوته كرب ولا مكروب، ولا هم ولا مهموم، ولا غم ولا مغموم، ولا سؤال ولا حال... فهذه أسماء الله الحسنى تجلَّت على كل شيء.. وأحكمت كل شيء.. ولا يفوتها شيء.. فسبحان ربنا سبحانه وصلَّى الله وسَلَّم على مَن علَّمنا هذا الذكر وهذا الثناء، وهذا التوسل والرجاء، وهذه الطريقة في الطلب من ربنا وهذا الدعاء.. فاللهم استجب.

«**إِلَّا أَذْهَبَ اللهُ هَمَّهُ وَحُزْنَهُ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَحًا**»: عجبًا لأناس يمتدحون [الحزن] على المؤمن، ويمتدحون مسحة الحزن على أخلاقه وحياته ونفسيته، عجبًا لهم وهم يدعون الله ﷻ بهذا الدعاء العظيم..؟!

عجبًا لهم امتداح الحزن! ولا أدري من أين أتوا بفضيلة الحزن؟ وكل ما يذكرونه من آثار عن بعض السلف ﭫ، وما كان ذلك إلا لَـمَّا خافوا على الناس حين فُتحت عليهم الدنيا وفتنتها، بينما لم يصح حديث واحد في فضيلة الحزن عن رسول الله ﷺ.

عجبًا لأناس يربطون الحزن بدين الله، ويربطون الحزن بالجِدِّيَّة والقيادة، ويربطون الحزن بالهِمَّة العالية، ويربطون الحزن بالخوف من أمر الله، ومَن أرسله الله ﷻ جعله رحمة للعالمين غاية رسالته ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

كيف يكون للحزن في الإسلام أساس، وأول كلمة كُتبت في القرآن العظيم وفي أول [أم الكتاب] هي ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، وتتأكد هذه الكلمة العظيمة كاملة هكذا مائة وأربع عشرة مرة في القرآن العظيم، والكلمة الثانية ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، والكلمة الثالثة ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، والكلمة الرابعة ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ ، فهي كلمة الأمان العظمى يوم الخطر العظيم يوم الدين.. إذ نحن في حمى مالكه، والكلمة الخامسة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ، الذروة في الإحسان والقُرب من ربنا سبحانه، وما رأيت كلمة في القُرب والإحسان مثلها أبدًا من كل كلام الله العظيم، والكلمة السادسة ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾، فهو الصراط الذي لا خوف على أصحابه ولا هم يحزنون، والكلمة السابعة ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، فالأحزان لهؤلاء وعلى هؤلاء في الدنيا والآخرة ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [سورة طه].

أليست هذه أم الكتاب، أليست هي الكنز الأعظم الذي أُنزل على رسول الله ﷺ، أما الكنز الثاني فهو ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [سورة البقرة]، فهذان دعاءان

مجابان جامعان لكل ما يمكن أن يدعو به الإنسان للدنيا والآخرة، سواء كان لنفسه، أو لغيره، أو لأمته.. فهل فيهما ذكر للأحزان؟!

كيف يكون للحزن مكان في القلب والحزن من الشيطان.. ولا يكون إلا من الشيطان – نعوذ بالله منه – كما قال ربنا سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المجادلة: ١٠]، فهذا أمر الشيطان ومراده – نعوذ بالله منه – أما الله ﷻ فقد أمر بالفرح بفضل الله، وشُكر الله على نِعَم الله، وحُسْن الظن الدائم بالله، ولم يأمر بالحزن؛ فقال: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]، وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، وقال سبحانه: ﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٣]، وقال سبحانه: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠]، وقال سبحانه: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ [مريم: ٢٤]،، وقال: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[يونس: ٦٢]، وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧]، وقال: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [لقمان: ٢٣]، وقال سبحانه: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [يس: ٧٦]، أما الفرح بمعصية

الله، وأسبابها، فهذا هو ما قال الله عنه: ﴿لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦]، وأي مؤمن يحب ما أحبه قارون مِنْ كِبر، وبخل، وإفساد في الأرض، وادِّعاء على الله تعالى.. وإنكارٍ لقومه، وولاء لفرعون على حساب قومه..﴿إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦]..﴿فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ ٨١ وَأَصۡبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوۡاْ مَكَانَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَقُولُونَ وَيۡكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُۖ لَوۡلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا لَخَسَفَ بِنَاۖ وَيۡكَأَنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [سورة القصص].

فالحزن حتى في الرؤيا ليس مقبولًا، لأنه لا يكون إلا من الشيطان - نعوذ بالله منه - فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِذَا اقْتَرَبَ الزَّمَانُ لَمْ تَكَدْ رُؤْيَا الْمُسْلِمِ تَكْذِبُ، وَأَصْدَقُكُمْ رُؤْيَا أَصْدَقُكُمْ حَدِيثًا، وَرُؤْيَا الْمُسْلِمِ جُزْءٌ مِنْ خَمْسٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ، وَالرُّؤْيَا ثَلَاثَةٌ: فَرُؤْيَا الصَّالِحَةِ بُشْرَى مِنَ اللهِ، وَرُؤْيَا تَحْزِينٌ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَرُؤْيَا مِمَّا يُحَدِّثُ الْمَرْءُ نَفْسَهُ، فَإِنْ رَأَى أَحَدُكُمْ مَا يَكْرَهُ فَلْيَقُمْ فَلْيُصَلِّ، وَلَا يُحَدِّثْ بِهَا النَّاسَ**»[(١)].

فالحزن من شر الشيطان، ونفخه، ونفثه، ووسوسته يقظة، أو حتى في المنام، نعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: لِأَبِي طَلْحَةَ: «**الْتَمِسْ غُلَامًا مِنْ غِلْمَانِكُمْ يَخْدُمُنِي حَتَّى أَخْرُجَ إِلَى خَيْبَرَ**». فَخَرَجَ بِي أَبُو طَلْحَةَ مُرْدِفِي وَأَنَا غُلَامٌ رَاهَقْتُ الْحُلُمَ فَكُنْتُ أَخْدُمُ رَسُولَ اللهِ ﷺ إِذَا نَزَلَ، فَكُنْتُ أَسْمَعُهُ كَثِيرًا يَقُولُ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ وَالْعَجْزِ وَالْكَسَلِ وَالْبُخْلِ وَالْجُبْنِ وَضَلَعِ**

(١) رواه البخاري (٧٠١٧)، ومسلم (٢٢٦٣) واللفظ له.

الدَّيْنِ وَغَلَبَةِ الرِّجَالِ»[١].

فأعوذ بالله، ثم أعوذ بالله أن نسأل الله مما استعاذ منه رسول الله ﷺ، ولأن الحزن مؤذٍ، ولأنه بلاء، ولأنه هَمٌّ وغَمٌّ فقد جعله الله للمؤمن كفارة لصبره عليه ورضاه بقدر الله، إذًا فليس هو كفارة لفضله - نعوذ بالله من ذلك -، بل كفارة لصبر المؤمن ورضاه بقدر الله.. ولهذا استعاذ رسول الله ﷺ منه قبل نزوله كما مرَّ معنا في حديث أنس رضي الله عنه، وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَا يُصِيبُ الْـمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ وَلَا هَمٍّ وَلَا حُزْنٍ وَلَا أَذًى وَلَا غَمٍّ، حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا إِلَّا كَفَّرَ اللهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ**»[٢].

وأي باب للسخط على أقدار الله مثل باب الحزن..

ونحن إذا نظرنا في الدعاء وجدنا أن الطلب بالنسبة للحزن هو [الجلاء] في جميع ما عثرت عليه من الروايات، أما الهم والغم فالوارد فيهما إنما هو الذهاب.. ولو كان في الحزن خيرٌ ما كان حظه [الجلاء]، فالجلاء كما قال ابن منظور في لسان العرب: «الجلاء: الكشف، والإزالة، والإبانة»[٣]، فالإبانة هي القطع، والبَتّ، فلا يبقى منه شيء.

إننا لو طوَّفنا سريعًا على الأبواب الشرعية لوجدنا براءة الأخلاق والمبادئ الشرعية من الحزن إجماعًا، فإنه مفسدها، وإنه إذا دخل الحزن في أخلاق تحوَّلت إلى أخلاق مؤذية ضارة، فلذلك لا علاج له إلا الجلاء والإجلاء؛ فانظر إلى أبواب الأخلاق السيئة ونصيب الحزن منها: البُغض، التنازع، الجُبن، الجزع،

---

(١) رواه البخاري (٢٨٩٣) واللفظ له، ومسلم (١٣٦٥).

(٢) رواه البخاري (٥٦٤١) واللفظ له، ومسلم (٢٥٧٣).

(٣) لسان العرب لابن منظور (١٤/ ١٥٠-١٥١).

الجفاء، الخبث، الخداع، الذل، السخط، سوء الخلق، سوء الظن، سوء العِشرة، سوء المعاملة، صغر الهمة، الضعف، العبوس، العتو، الغش، الغل، الغيبة، القذف، القسوة، قطيعة الرحم، القلق، القنوط، الكرب، اللؤم، الشح، النجوى، النفاق، النقمة، النكران، الهجران، الوسوسة، الوهن، الوهم، اليأس... وهكذا، وهكذا.

فإذا كانت هذه بيئة [الحزن]، وهذه أرضه، وهذا جوه، وهؤلاء رفقته فأنَّى له أن يكون مطلوبًا مرغوبًا؟! نعوذ بالله من ذلك، ثم انظر في أبواب الخير وسوف تجد تلك الأبواب مغلقة في وجوه الحزن والغم، فهذا باب: الإحسان، باب الإخلاص، وهكذا جميع أبواب الخُلُق الحَسَن وأعمال البِرِّ، ولا حاجة لِأَنْ أُطيل في تعدادها، وإنك لا تكاد تجد الحزن تمكَّن من خلق ولا باب إلا أفسده، لأنه من عمل الشيطان، ومن هنا نرى عظمة هذا الدعاء الذي علَّمنا إياه رسول الله ﷺ، واستغاث بالله هذه الاستغاثة، وكم نكسب إذا ما خلَّصنا الله منه وطهَّر حياتنا منه وأخلاقنا.. إنه خلوص من الشيطان - نعوذ بالله منه - في أبواب كثيرة لأخلاقنا وحياتنا.

وإنما دخل هذا الظن الباطل على البعض من أن الحزن مطلوب هو اشتباهه عليهم بالخشية والخشوع، والإنابة، والخوف من الله، والتقوى، وتذكُّر الموت، والحياء، والزهد، والغيرة، ومجاهدة النفس، والمروءة، والورع، ونحو ذلك من الأخلاق العظيمة..!

وهذا من تلبيس الشيطان - نعوذ بالله منه - فيكفي أن لا نجد للحزن في هذه الأبواب ذكرًا، ومتى دخل الحزن هذه الأبواب دخلها الفساد، إذ دخلها الشيطان - نعوذ بالله منه -، فهذه حصون الأخلاق العلية.. والحامية، والحافظة لحياة

المسلم وأخلاقه، وكلها أخلاق عطاء ونفع للآخرين، كما أنها أخلاق قُرب إلى الله رب العالمين، وقد قال الله لرسوله ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، فأي تلبيس هذا الذي يرى أن الخوف من الله فيه نصيب كبير من الحزن.. وكيف يكون كذلك وربنا سبحانه يقول: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ [الذاريات: ٥٠]، فالخوف من الله فرارٌ إلى الله، وليس فرارًا من الله – عياذًا بالله –، فرارٌ إلى رحمة الله، فرارٌ إلى السعادة حيث لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، والإنسان أبعد ما يكون بالخوف من الله عن الحزن، وعن اليأس، وعن القلق، وعن القنوط، وعن الانتحار.. إنه فرار من النار إلى الجنة، ومن الأسباب المؤدية إلى الناس إلى العمل الصالح المؤدي إلى الجنة، وهكذا وهكذا، ومن الأسباب المقعدة إلى عمارة الأرض وإصلاحها.

إن دخول الحزن على أي خُلُق من هذه الأخلاق الكريمة فذلك يعني دخول الهوى على ذلك الخُلُق الطاهر النقي.. وهو دخول الانحراف عما شرعه الله.. وإنه ابتداع لم يكتبه الله في الأخلاق العظيمة، كما قال سبحانه عن الرهبانية: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَاۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٧]، وأكثر ما يكون دخول الحزن على أي خُلُق آخر إنما هو رياء، وتكلُّف، وسوء فهم للأخلاق.. وإشباع للسلبية النفسية، وانكفاء إلى داخل النفس الانطوائية، وابتداء بمشروع عزلة ما أمر الله بها، والله ﷻ يقول: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠]، والنبي

ﷺ يقول: «**الْـمُؤْمِنُ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ**[١]، **وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ أَعْظَمُ أَجْرًا مِنَ الَّذِي لَا يُخَالِطُهُمْ، وَلَا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ**»[٢]، بل إن المسلم إذا اعتكف، ولو كان اعتكافه في رمضان، وفي العشر الأخير، وفي المسجد النبوي الشريف، ثم جاءه مَن يخرجه من معتكفه العظيم ليشفع له، فعليه أن يقطع اعتكافه، ويخرج معه على الفور، وله أجر اعتكافه كاملًا حتى لو كان فيه ليلة القدر، وله فوق ذلك، كما ذكر النبي ﷺ؛ فَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّ رَجُلًا جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَى اللهِ؟ وَأَيُّ الْأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى اللهِ ﷻ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى اللهِ أَنْفَعَهُمْ لِلنَّاسِ، وَأَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللهِ سُرُورٍ تُدْخِلُهُ عَلَى مُسْلِمٍ، أَوْ تَكْشِفُ عَنْهُ كُرْبَةً، أَوْ تَقْضِي عَنْهُ دِينًا، أَوْ تُطْرَدُ عَنْهُ جُوعًا، وَلِأَنْ أَمْشِيَ مَعَ أَخٍ لِي فِي حَاجَةٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتَكِفَ فِي هَذَا الْـمَسْجِدِ - يَعْنِي مَسْجِدَ الْـمَدِينَةِ - شَهْرًا، وَمَنْ كَفَّ غَضَبَهُ سَتَرَ اللهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ كَظَمَ غَيْظَهُ، وَلَوْ شَاءَ أَنْ يُمْضِيَهُ أَمْضَاهُ، مَلَأَ اللهُ ﷻ قَلْبَهُ أَمْنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ مَشَى مَعَ أَخِيهِ فِي حَاجَةٍ حَتَّى أَثْبَتَهَا لَهُ أَثْبَتَ اللهُ ﷻ قَدَمَهُ عَلَى الصِّرَاطِ يَوْمَ تَزِلُّ فِيهِ الْأَقْدَامُ**»[٣].

---

(١) يخالط الناس: يساكنهم ويعاملهم.

(٢) رواه أحمد (٥٠٢٢)، وابن ماجه (٤٠٣٢)، واللفظ لهما، وابن أبي شيبة في مصنفه (٢٦٢٢٠)، والبخاري في الأدب المفرد (٣٨٨)، والترمذي (٢٥٠٧)، والطبراني في الكبير (١٣٧٦٧)، والأوسط (٥٩٥٣)، والبيهقي في السنن الكبرى (٢٠١٧٤)، وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح، وقال الأرنؤوط: إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين.

(٣) رواه الطبراني في الأوسط (٦٠٢٦)، وقال الألباني في الصحيحة (٩٠٦): حسن لغيره.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦]: البعض يحتج لفضيلة الحزن -والعياذ بالله- بقول الله ﷻ عن يعقوب عليه السلام: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [يوسف: ٨٦]؛ مع أن الآية نفسها هي الجواب: وذلك أن يعقوب عليه السلام قال:﴿أَشۡكُواْ﴾، وقال: ﴿بَثِّي وَحُزۡنِيٓ﴾، فهو أذى ووجع وألم ومذموم، لذلك استحق الشكاية وهي أبلغ ما تكون في شدة الطالب، فالحزن لا يترك ابن آدم .. لذلك لا بد من الشكوى إلى الله .. لا بد من الاستعاذة بالله من الهم والحزن .. فالحزن لا يُطلب، بل يُطرد.

أما الهموم التي يحملها المؤمن لله مثل هم هداية الخلق، هم إنقاذ الناس، هم إصلاح الخصومات .. هم الفقراء والمساكين .. هم رفع الظلم عن المظلومين، فإن الهم هنا لا يزول إلا بتحقيق الغاية، وعندها يزول الهم ويذهب، فالهم هنا كذلك مطلوب إزالته، لأن إزالته منوطة بتحقق الغاية وعندها يحل الفرح بهذا المهموم ويسعد، كما قال الله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١١ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٢ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الصف:١٠-١٣]، وقال سبحانه: ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الروم:٤،٥].

وهكذا حمل يعقوب عليه السلام الحزن العظيم .. لأنه يعلم يقينًا أن بعد هذا الحزن تحقق الغاية، وهي البشارة بتحقيق الرؤيا الأولى ليوسف عليه السلام: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤]، ويوسف عليه السلام يعلم

بهذا تمام العلم، فمن خُصَّ بهذا العلم في ذرية يعقوب عليه السلام من الأبناء إنما هو يوسف عليه السلام، ولهذا كان القميص كافيًا للإشارة إلى لبس ما فصله الله لهم من الرؤيا من لباس المُلْك، فكان هذا علامة على تحققها وبشارة، وأي بشارة! ويعقوب عليه السلام وجد رائحة حبيبه من بعيد إلا أنه ما علم من أي شيء من يوسف جاءت .. فلما كان القميص وأُلْقِيَ على وجهه علم يقينًا أن يوسف عليه السلام قد تلبَّس بالـ مُلك فعليًّا، وأن الرحيل قد حان إلى يوسف الابن النبي الملك ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف:٩٤-٩٦].

فالنبي ﷺ حين يسأل الله زوال الحزن وذهاب الهم والغم، إنما يسأله تحقق الغاية التي لا تتحقق ما دام الحزن قائمًا والهم قاتمًا والغم ملازمًا والغرم غالبًا، وحين يستعيذ النبي ﷺ من الحزن إنما يستعيذ بأمر مكروه مؤذٍ مقلق .. يحبه الشيطان نعوذ بالله منه.

ولما أن كانت غاية الغايات هي الجنة، فإن الله سبحانه طَهَّرها من الهم والحزن والغم، والله أعلم المؤمنين بذلك ورَغَّب العباد بها، لأن من خصائصها المرغبة في طلبها ودخولها وسكناها أن أهلها ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢] مع الإقرار بأن هذا الأمر لا خلاص منه تمام الخلاص في الدنيا .. بل هو باب أجر عظيم عند الصبر عليه والرضا والنبي ﷺ يقول: «**مَا يُصِيبُ الْـمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ وَلَا هَمٍّ وَلَا حُزْنٍ وَلَا أَذًى وَلَا غَمٍّ، حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا إِلَّا كَفَّرَ اللهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ**»(١).

(١) رواه البخاري (٥٦٤١) واللفظ له، ومسلم (٢٥٧٣).

المثل الأعلى لمَن كان القرآن ربيع قلبه:

هل من مسلم لا يطمع أن يكون القرآن [ربيع قلبه]..؟

بل إنَّ كل مسلم يودُّ لو أنه عرف رجلًا محدَّدًا جعل الله ﷻ القرآن [ربيع قلبه]، فيتعرَّف عليه، ويتقرَّب إليه، ويقوم بخدمته... فإن وجود ذلك الرجل هو مَن يجعل لنا هذا الأمل واقعًا، ويجعل هذه الصورة حقيقة، ويجعل بلوغ الحلم ممكنًا...

فكيف ونحن عندنا [المثل الأعلى] لكل مَن كان القرآن ربيع قلبه.. أليس هو مَن دعا بهذا الدعاء الذي هو موضوعنا وغايتنا: «**أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجِلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي**»؟

ومَن هو إلا رسول الله ﷺ، بل هو أعلى من ذلك... أليس هو مَن أنزل الله ﷻ عليه: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٧]، فالقرآن بعدما نزل على قلبه أولًا انتقل من قلبه إلى قلوب الناس، فأصبح لـمَن يشاء الله ربيعًا لقلبه، أما هو لقلب رسول الله ﷺ فذلك ما لا يمكن إدراكه، ولا بلوغ تصوره.. فالله ﷻ ما قال: [قل مَن كان عدوًّا لجبريل فإنه نزله على قلوب عباده]، إنما قال: ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ ومن قلبك إلى قلوب العالمين من الثقلين وإلى الخلق أجمعين.

والذي يعنينا من ذلك الأثر لـمَن جعل الله القرآن ربيع قلبه، وكيف يُعرف الربيع إلا بأجوائه، وأنواره، وثماره، وآثاره، وخصبه؟!

لقد قال الله ﷻ قولًا جامعًا مانعًا.. عليًّا رافعًا في ذلك، كونه ﷺ [المثل الأعلى] لكل مَن كان القرآن ربيع قلبه؛ فقال سبحانه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾

[القلم: ٤]، ولقد سئلت عائشة ﵂ عن خُلُق النبي ﷺ، فقالت: «**كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ، أَمَا تَقْرَأُ الْقُرْآنَ، قَوْلَ اللهِ ﷻ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾** [القلم: ٤]»[(١)].

وهاك مثالًا واحدًا جامعًا، والأمثلة لا نهاية لها، وكلها شاهدة على أنه ﷺ المثل الأعلى لكل مَن جعل الله القرآن ربيع قلبه؛ فَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﵄ قَالَ: «**كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَجْوَدَ النَّاسِ، وَكَانَ أَجْوَدُ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ، وَكَانَ جِبْرِيلُ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ فَيُدَارِسُهُ الْقُرْآنَ، فَلَرَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ أَجْوَدُ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ**»[(٢)].

فلا يمكن أن يبلغ أحدٌ مبلغ رسول الله ﷺ في كل الأخلاق مجتمعة، ولا في كل خُلُقٍ على انفراد... والسِّرُّ الأعظم في هذا هو هذا القرآن العظيم الذي نزَّله جبريل ﵇ على قلبه بأمر ربه سبحانه.. والناس من بعده ينظرون إليه ويتسابقون إليه... وهو داعٍ في أعلى الصراط المستقيم، أليست الأمة كلها تهتف وتدعو دعاء الحق عند النداء الأعلى في سماوات الأمة في الليل وفي النهار خمس مرات بالمقام الأعلى لرسول الله ﷺ: «**اللَّهُمَّ رَبَّ هَذِهِ الدَّعْوَةِ التَّامَّةِ، وَالصَّلَاةِ الْقَائِمَةِ، آتِ مُحَمَّدًا الْوَسِيلَةَ وَالْفَضِيلَةَ، وَابْعَثْهُ مَقَامًا مَحْمُودًا الَّذِي وَعَدْتَهُ**»[(٣)]. إنه لواء الحمد؛ وهل أعلى من هذا اللواء أحد؟

إن قول النبي ﷺ في هذا الدعاء العظيم: «**أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجِلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي**» ليرينا نوعية الهَمِّ الذي يحمله رسول الله ﷺ، إنه يحمل هم إزالة كل هَمٍّ وحزنٍ عن كل مهموم ومحزون في هذه الحياة

---

(١) رواه أحمد (٢٤٦٠١) واللفظ له، ومسلم (٧٤٦)، وصححه الأرنؤوط.

(٢) رواه البخاري (٣٢٢٠) واللفظ له، ومسلم (٢٣٠٨).

(٣) رواه البخاري (٤٧١٩).

الدنيا... عن نفس كل إنسان.. إنه لأَعْظَم الإحسان.. وهذا طريق كل مَن أصبح القرآن ربيع قلبه.

إن الحزن والغم والهم هو مادة الشيطان المسمومة لإيذاء كل نفس وتدميرها، والسخط على القضاء والقدر، وتدمير الإنتاجية... وتدمير الأسرة، والتربية، وتفكيك المجتمعات، ولهذا جاء هذا الدعاء العظيم فكان مفعول القرآن أن يجعل القلب ربيعًا، والبيت ربيعًا، والحياة ربيعًا..

ومن ثَمَّ كان أعظم الناس تفاؤلًا واستبشارًا هو رسول الله ﷺ، وكان ﷺ أعظم الناس إيثارًا، وإنفاقًا، وعطاء، وبشارة، وبشاشة، وتعارفًا، وتفريجًا للكربات، ومودَّة، وتودُّدًا، وحُسن عِشرة، ورجاء، ورجولة، وإكرامًا، وشجاعة، ونخوة، ونصرة، ونجدة، وإحاطة، فصَلَّى الله وسَلَّم عليه وعلى آله.

وهكذا يكون تابعه فمَن جعل الله القرآن ربيع قلبه.. عَمَّ ربيعه على أهله، وصحبه، ومجتمعه، والناس أجمعين.. كل حسب قوة رِبعة القرآن لقلبه، وهذا هو الفرقان الحقيقي بين عالِمٍ وعالِمٍ، وحافظ وحافظ، وعامي بقراءته في المصحف جعل الله القرآن ربيع قلبه، وبين عالِمٍ ليس له من القرآن إلا حروفه الكريمة.

وإن السعادة تعمُّ الأسرة، وتعم البلد، وتعم أكثر وأكثر كلما كثر فيها مَن أصبح القرآن ربيع قلوبهم، لأنهم هم إكسير السعادة، لأنهم الشفاء من اليأس، والضجر، والهموم، والغموم، وهم العلاج من الانتحار والتعاسة والانتكاسة النفسية.

هنا ندرك... وكل يوم سندرك الجديد لِمَ كانت هذه الاستغاثة العظمى من رسول الله ﷺ في هذا الدعاء العظيم.

الخاتمة

الربيع: أعظم دعاء لعودة القرآن الآن

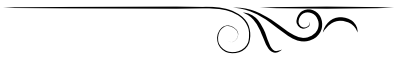

ورسول الله ﷺ يعلم يقينًا أن رجالًا في كل زمان في أمته لن يكون همهم الذِّكْرَ في هذه الحياة الدنيا.. إنما همهم هو القرآن العظيم وحاله في أمة القرآن العظيمة.. وعلى الأخص إذا كان حظه في أمته هو الهجران التام! لكنه ينظر في هذا الدعاء فيجده دعاءً فرديًّا؛ «**رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجِلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي**».. هكذا هو الدعاء على وجه الخصوص؛ فلا يرى أنه دعاء يتعدَّى نفسه! إلا إنه إذا فتح الله له الآفاق، وجعل أمته كنفسه، كما جعلها رسول الله ﷺ رأى غايتها هي غاية هذا الدعاء تحديدًا هو [القرآن العظيم] في الأمة العظيمة.. فهنا تطابق أعظم ما كان ويكون منذ السرمد إلى الأبد وهي كلمات الله العظمى، وأسماء الله الحسنى، فوجد في هذا الدعاء كامل دعوته، ومنتهى غايته، فدعا به عن كل فردٍ في بلدته، وفي أمته، وربه أعلم بحالته، وكله يقين أن هذا القرآن يحيي قلب الفرد كما يحيي قلب الأمة، **وأنه ربيع الأمة** كما يكون ربيع الفرد، وأنه نور صدر الأمة كلها كما هو نور صدر الفرد، وأنه جلاء حزن الأمة برمتها كما هو جلاء حزن الفرد الواحد، وأنه ذهاب هموم الأمة وغمومها كما هو ذهاب هم الفرد وغمه.. وأن إحياء الأمة والناس أجمعين عند الله في يسره وهوانه كإحياء فرد واحد، وقد قال الله ﷻ: ﴿وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ﴾ [لقمان: ٢٨]، ألا والله ما أعظم القرآن العظيم، وما أعظم سائل الله

ﷻ بأسمائه الحسنى كلها لأجل القرآن.. ولا شيء أعظم من فعل القرآن في الحياة؛ فالله ﷻ يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [الرعد: ٣١]، وسيهدي الله الناس جميعًا بهذا القرآن العظيم.

ثم هل يمكن أن يُقدِّم داعٍ أمة محمد ﷺ والقرآن العظيم ثم يتركه الله- تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا - والرسول ﷺ يقول: «**يَقُولُ الرَّبُّ ﷻ: مَنْ شَغَلَهُ الْقُرْآنُ عَنْ ذِكْرِي وَمَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِي السَّائِلِينَ، وَفَضْلُ كَلَامِ اللهِ عَلَى سَائِرِ الْكَلَامِ كَفَضْلِ اللهِ عَلَى خَلْقِهِ**»(١)، وإنه لسؤال لأعظم الذكر وهو القرآن العظيم.

وكم كان رسول الله ﷺ يدعو لنفسه وهو إنما يدعو لأصحابه وللناس، بينما ظاهر الألفاظ تقتضي أن يدعو لنفسه فحسب، فَعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: «**يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ**»، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ آمَنَّا بِكَ وَبِمَا جِئْتَ بِهِ، فَهَلْ تَخَافُ عَلَيْنَا؟ قَالَ: «**نَعَمْ، إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللهِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ**»(٢).

فالرسول ﷺ ما قال هنا: ثبِّت قلوبنا، ولكن قال: «**قَلْبِي**»، ومع هذا فإن الصحابة رضي الله عنهم فهموها مباشرة أنها دعوة لهم، ولذا خاف الصحابي من تغيُّر قلوبهم، وتغيُّر إيمانهم، فبادر النبي ﷺ بما جال في نفسه في لحظته، فسأله قائلًا:

---

(١) رواه الترمذي (٢٩٢٦)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ.

(٢) رواه الترمذي (٢١٤٠) وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ، وأحمد (١٣٦٩٦) باختلاف يسير، وقال الأرنؤوط: إسناده قوي على شرط مسلم، وابن ماجه (٣٨٣٤) بنحوه.

يَا رَسُولَ اللهِ آمَنَّا بِكَ وَبِمَا جِئْتَ بِهِ، فَهَلْ تَخَافُ عَلَيْنَا؟ ولم يقل له بناء على سياق الحديث: فهل تخاف على نفسك! وهكذا هي أدعية رسول الله ﷺ.

ولو أن رجلًا أخذ دعاءً يدعو به لنفسه فزاده حرف الجمع، فبدل أن يقول: يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك، فزادها [نا] الجمع يريد أبناءه، وإخوانه، وأهله.. ألا يكون مأجورًا.. فماذا إذا أضاف صحبه.. فماذا إذا أضاف حرف النون، وأراد أمته كلها.. فالأجر بقدر مَن نوى نفعه.. وذكره مع نفسه عند الله في دعاء.. فهي دليل الأخوة في الله، والغيرة لله.. والغيرة على ميراث رسول الله ﷺ، وهو أمته. ولو لم يزد حرف الجمع، ولكنه دعا بهذا الدعاء، وقال في آخره: لي، ولأهلي، وصحبي، وأمة محمد ﷺ أجمعين.. هل يقول له أحد: تجاوزت.. عياذًا بالله! والأصل في استحباب التعميم في الدعاء هذا هو أن أعظم كنزين نزلا على رسول الله ﷺ... سورة الفاتحة، وهي أم الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، فما فيهما كلمة واحدة في دعائهما أو خطابهما تدل على الفرد.. فكل جمع في مثل هذا يُحمل على إطلاقه، وكل إنسان بعد ذلك يختار حدوده، وفي الحديث عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ قَالَ: «بَيْنَمَا جِبْرِيلُ قَاعِدٌ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ سَمِعَ نَقِيضًا مِنْ فَوْقِهِ فَرَفَعَ رَأْسَهُ، فَقَالَ: هَذَا بَابٌ مِنَ السَّمَاءِ فُتِحَ الْيَوْمَ لَمْ يُفْتَحْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ، فَنَزَلَ مِنْهُ مَلَكٌ، فَقَالَ: هَذَا مَلَكٌ نَزَلَ إِلَى الْأَرْضِ لَمْ يَنْزِلْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ، فَسَلَّمَ وَقَالَ: أَبْشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيتَهُمَا لَمْ يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ: فَاتِحَةُ الْكِتَابِ، وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إِلَّا أُعْطِيتَهُ»[(١)].

(١) رواه مسلم (٨٠٦).

الفهرس

المطلع: مطلع هذا الربيع في حفظ وصية رسول الله ﷺ هذه وتعلُّمها ٥
وصية رسول الله ﷺ ٥
لمن هذا الدعاء ٧
دعاء بصيغى الفرد ٩
دعاء مثال لجوانمع الكلم ١٠
مطلع الكلمات ١١
الكلمة الأولى: سليل العبودية يتزلَّف بها إليك ربي ١٤
الحقيقة الراسخة العميقة ١٤
العبودية لربي عنواني وشجرتي ١٥
لا مقام ولا قيمة لذكر اسمي هنا أبدًا ١٦
التزلُّف بعبوديتي.. لا الإخبار بها ١٦
عبق بِرِّ الوالدين من هذا الدعاء ١٧
الكلمة الشريفة الثانية تسليم ناصيتي بيديك قبل حُكْمِك وقضائك سبحانك ... ١٩
ما بين ناصية وناصية ٢٠
الكلمة الثالثة الشريفة: إعلان الرضا بالحكم قبل رفع السؤال ٢٢
الكلمة الشريفة الرابعة السؤال بأسماء الله الحسنى كلها ٢٥

عنوان الإجابة بالتهيئة بأعظم زلفى ٢٥
تَنَبَّه لسعة هذا الحرف: «بِكُلِّ» ٢٦
تَنَبَّه لخصوصية واختصاص «هُوَ لَكَ» ٢٧
تَنَبَّه هنا لـ «هُوَ» وما فيها من عظمة ٢٨
تَنَبَّه للتعظيم في مجموع «بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ» ٢٩
التثبُّت أولًا من فهم: «أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ» ٣٠
تَنَبَّه للتفصيل القادم بعد «هُوَ لَكَ» ٣١
دلالات عظيمة لـ: «سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ» ٣٢
وعلم أدم الأسماء كلها ٣٩
سلطان أسماء الله الحسنى ٤١
كم عظم حرف «أَوْ» بين أسماء الله الحسنى! ٤٣
هل يسمِّي أحد من البشر ربه ﷻ؟ ٤٥
شرف الأسماء التسعة والتسعين ٤٨
الكلمة الخامسة طلب الربيع وما بعد الربيع من الله ﷻ ٥٠
لا ابتداء قبل القلب ٥٠
الضابط من النشاط يكون القرآن [رَبِيعِ القَلْبِ] ٥٣
ليس ربيع سمعي، ولا ربيع بصري ٥٣
ربيع كل شيء لأنه من [رَبِيعِ القَلْبِ] ٦٢
الضرب على القرآن في هذا الزمان ليس من [رَبِيعِ القَلْبِ] ٦٢
صاحب الحظوة من الربيع ٦٦

من حامل الربيع إلى الناس ٦٦
وهذا دعاء للعالمين أجمعين ٧١
دوام الربيع ٧٣
ربيع العمر من [رَبِيعِ القَلْبِ] ٧٥
الربيع عالم كامل ٧٦
الكلمة السادسة ونور صدري ٧٩
الكلمة السابعة هنا لا استقرار للأحزان أبدا ٨٤
«وَجِلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي» ٨٤
الكلمة الثامنة وذهاب همي ٨٤
القضاء على الظلمات وكائناتها بـ[نُورِ صَدْرِي] ٨٧
استعاذة بالله من الحزن ٨٩
المثل الأعلى لمَن كان القرآن ربيع قلبه ١٠٠
الخاتمة الربيع: أعظم دعاء لعودة القرآن الآن ١٠٣
الفهرس ١٠٦

ربيع قلبي